المرحلة الثانية

جهريّة الدّعوَة وسِرّية التَّنظيم

ويمكن أن نلاحظ أن هذه الجهرية نفسها قد مرت بمرحلتين :

المرحلة الأولى : جهرية الرسول ﷺ .

المرحلة الثانية : جهرية المسلمين .

وحيث إن الفارق الزمنى بينهما فارق ضئيل وهو أقل من سنتين ، فلا نرى داعياً لإفراد كل واحدة منهما فى مرحلة .

وتبتدئ المرحلة الثانية إذن بنزول قول الله عز وجل : ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [الحجر : ٩٤] ، وقوله : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، ﴿ **وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ** ﴾ [الحجر : ٨٩] .

روى ابن سعد عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال : أُمر رسول الله ﷺ أن يصدع بما جاء به من عند الله ، وأن يبادى الناس بأمره ، وأن يدعو إلى الله تعالى ، فدعى فى أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أمر بظهور الدعاء (١) .

روى البلاذرى عن جعفر بن عبد الله بن أبى الحكم قال :

(لما نزلت على النبى ﷺ : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعاً . . . فنزل جبريل فأمره بإمضاء ما أمر الله به ، وشجعه عليه . فجمعهم (٢) رسول الله ﷺ ثانية فقال : « الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » . ثم قال : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو ، إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءًا ، وإنها للجنة أبدا ، أو النار أبدا ، وأنتم لأول من أُنذِر » .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك ومرافدتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنى

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١٩٩ .

(٢) كان قد جمعهم أول مرة ، وكانوا خمسة وأربعين رجلاً من بنى عبد المطلب وبعضهم من بنى عبد مناف وتسافه أبو لهب ، وحال دون إنذارهم .

والله أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أنى لا أجد نفسى تطوِّع لى فراق دين عبد المطلب حتى أموت على ما مات عليه. وتكلَّم القوم كلاماً ليناً غير أبى لهب فإنه قال : يا بنى عبد المطلب، هذه والله السوأة، خذوا على يديه ، قبل أن يأخذ على يده غيركم، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم . فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا) [1] .

وروى البلاذرى عن هند بنت الحارث ؛ أن صفية بنت عبد المطلب قالت لأبى لهب: (أى أخى ، أحسنٌ بك خذلان ابن أخيك وإسلامه ، فوالله مازال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضئ عبد المطلب نبى ، فهو هو . فقال : هذا والله الباطل، والأمانى وكلام النساء فى الحجال. إذا قامت بطون قريش كلها ، وقامت معها العرب ، فما قوتنا بهم . والله ما نحن إلا أكلة رأس) [2] .

وروى الشيخان والبلاذرى عن ابن عباس: (أن رسول الله ﷺ لما أنزل عليه: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ قام على الصفا فعلا أعلاها حجراً ثم نادى : « يا صباحاه » فقالوا : من هذا ؟ وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فاجتمعوا إليه . فقال رسول الله ﷺ : « إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقىَّ؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. فقال: « يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا . يا بنى عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا بنى عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا بنى كعب بن لؤى ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً. يا عباس عم رسول الله ﷺ ، أنقذ نفسك من النار ، فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا صفية عمة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد أنقذا أنفسكما من النار ، فإنى لا أملك لكما من الله شيئاً ، غير أن لكما رحماً سأبلها ببلالها . إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟

فنزلت : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ إلى آخرها [3] .

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ١/١١٨ ، ١١٩ .

(٢) المصدر نفسه ١/١١٩ .

(٣) صحيح البخارى، كتاب التفسير ، سورة المسد ٣/٦/٩٥، وصحيح مسلم ١/١٩٢، ١٩٣، ١٩٤ ح (٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥٥) .

وننتقل بعد عرض بداية هذه المرحلة من خلال النصوص إلى عرض مواصفاتها العامة، علماً بأن هذه المرحلة تنتهى بعد عام الحزن ، حيث اتجه رسول الله ﷺ خارج مكة ساعياً لإقامة دولة الإسلام ، ومدة هذه المرحلة على هذا الأساس سبع سنين .

مواصفات المرحلة الثانية وسماتها

السمة الأولى

دعوة الأقربين

فالشيء الطبيعي أن تكون الدعوة في المرحلة الأولى في صفوف الأقربين ، وبخاصة عندما تأخذ طابع المواجهة المعلنة ؛ لأن هذه المواجهة تعرض الداعية للخطر ، فلابد له من حماية ، وعشيرة الداعية هم أكثر الناس استعداداً لحمايته . ولقد وجدنا بذور الدعوة الأولى في المرحلة السرية داخل بيت النبي ﷺ ، فلقد كان أول الخلق إسلاماً بعد رسول الله ﷺ زوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، ومولاه زيد بن حارثة ، وابن عمه علي بن أبي طالب[1]، وبناته زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، فلقد كان البيت النبوي مسلماً كله . ومن أجل ذلك عندما انتقلت الدعوة إلى المرحلة الجهرية كان لابد من دعوة العشيرة الأقرب بني هاشم وبني المطلب ، وإعلامهم بالأمر .

وهذه سنة إلهية يحدثنا رسول الله ﷺ عن أسبابها بصدد قصة لوط عليه السلام حين جاءه قومه يهرعون إليه يريدون الفاحشة بضيفه من الملائكة وكان لوط عليه السلام قد هاجر إلى الشام ، فليس له قبيلة تحميه أو تمنعه إلا ابنتاه ، فامرأته كافرة ، والمؤمنون أقلة غير قادرين على حمايته ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] .

هذا النفر القليل الضعيف الذي لا يستند إلى عشيرة قوية حدا بلوط عليه السلام أن يقول :

﴿ **قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ** ﴾ [هود : ٨٠] .

فقال عليه الصلاة والسلام عن ذلك :

« رحمة الله على لوط ،لقد كان يأوي إلى ركن شديد ـ يعني الله عز وجل ـ

---

(١) الذي كان مقيماً عنده ، فلقد تكفل رسول الله ﷺ بتربيته تخفيفاً عن أبي طالب الذي كان كثير العيال فقير الحال ، ورداً لمعروفه في كفالته لرسول الله في صغره .

فما بعث اللّه بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه » [1] .

وهذه السنة الإلهية هى التى حالت بين كفار مدين وشعيب :

﴿ قالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود : ٩١] .

وسواء آمنت العشيرة أم لم تؤمن ، فإن حمايتها لابنها الداعية خط أصيل فى تاريخ الدعوات . فلقد اختلف موقف أبى طالب عن أبى لهب ، وتبنى أبو طالب حماية رسول اللّه ﷺ رغم عدم دخوله فى الإسلام ، بل لا تذكر الروايات أن أحداً أسلم فى هذه المرحلة، إلا ما يروى عن إعلان إسلام على رضي الله عنه فى هذا المجلس .

ومن العشيرة الأقرب إلى العشيرة الأكبر ، حيث كان الإعلان عاماً على جبل الصفا بأعلى مكة . فعمّ وخص ، وحضر الدعوة ممثلو قريش جميعاً ، ودعاهم إلى الإسلام والنصرة ، فانقلبوا جميعاً متخاذلين عنه ، وبخاصة عندما شتمه عمه أمام الملأ من قريش وعلى رؤوس الناس ، قائلاً له : تباً لك ألهذا جمعتنا .

ولكن موقف أبى طالب المعلن فى حماية رسول اللّه ﷺ ونصرته ، قد عكر صفو أهل مكة ؛ لأن هذا الإعلان بمثابة معركة داخلية جديدة فى صفوف مكة .

ولقد كان الأمر القرآنى من الوضوح حيث إنه لا خيار لرسول اللّه ﷺ من الإعلان العام مهما كانت نتائجه :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] .

غير أن الأمر بالإعلان وجهرية الدعوة قد اقترن بالدعوة إلى الصبر والصفح عن المشركين المعادين والإعراض عنهم ، وهذا يعنى إلغاء الصدام معهم وتجنبه ما أمكن سبيلاً إلى ذلك .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير للشيخ محمد على الصابونى ، سورة هود ٢/٢٢٧ .

السمة الثانية

الإعراض عن المشركين

فلابد من إفرادها بحديث واضح ، إذ أن خط الدعوة مع المشركين هو خط الإعراض عن أذاهم، فإعلان الدعوة ماض من جهة لا يتوقف للأذى النازل على المسلمين ، سواءً أكان أذىً مادياً أو معنوياً ، لكن الصبر على الأذى والإعراض عن المشركين باقٍ فلا مواجهة مادية، ولا مقاومة مسلحة، ولا انتقاماً وثأرًا لإهانة. إنها مرحلة كف اليد والاكتفاء بالتبليغ. ولابد أن يكون البلاغ مبيناً واضحاً لا لجلجة فيه ولا غموض:

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ [الحجر : ٨٩] .

لا يجوز أن تتميع الدعوة وتضيع معالمها بحجة مسايرة المشركين ومراعاة ظروفهم وتأليف قلوبهم،كما يلجأ كثير من الناس اليوم وهم يتعايشون مع النصارى ، فهم يتعرضون معهم لقضية الإيمان باللّه ويلمسونها لمساً خفياً حيث لا يجرح مشاعرهم ، فلا يذكرون كلمة الإسلام حتى لا يتهموا بالتعصب ، ولا يذكرون القرآن والرسول ﷺ حتى لا يغضب هؤلاء النصارى منهم .

إن كل الدول فى عصرنا الحاضر التى توجد فيها الأقليات الدينية تنهج هذه السياسة فى إذاعتها المرئية والمسموعة والمقروءة ، ويسمون هذا دعوة فى الحكمة والموعظة الحسنة .

إن الإعراض عن المشركين يعنى فكرتين فى وقت واحد :

الفكرة الأولى : المسيرة بالدعوة من الداعية وإيضاح معالمها غير عابئ بغضب خصومها أو مشاعرهم أو آرائهم .

الفكرة الثانية : عدم مواجهة أذاهم المادى والمعنوى وعدم الرد على تجريح الداعية والنيل منه والهزء به ، ممثلاً فى قول اللّه عز وجل : ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** ﴾ [القصص : ٥٥]، ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٣] .

السمة الثالثة

معالم الدعوة الجديدة

فالخطوط العريضة الأساسية لهذا الدين الجديد هى :

ـ الإيمان بالله الواحد .

ـ الإيمان برسول الله ﷺ .

ـ الإيمان باليوم الآخر .

هذه هى الخطوط العريضة التى تم التركيز عليها طيلة هذه المرحلة ، وهى منطلقات الدعوة الرئيسة فى الإعلان الأول للدعوة فى هذه الدنيا ، وفى خطبة رسول الله ﷺ بأهله : « الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . . . إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذى لا إله إلا هو . . . » .

وهكذا توضح الخط الأول .

أما الخط الثانى فهو :

« إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة » .

أما الخط الثالث فهو :

« والله لتموتن كما تنامون ،ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً . . . » .

وبقيت هذه الخطوط هى المحور الأساسى للدعوة وهى مشعل الحرب كذلك.

فلو قفزنا قرابة عشرين عاماً إلى الأمام ، وانتقلنا لصلح الحديبية ، لوجدنا طبيعة المعركة لم تتغير ، ومحور الخلاف لم يتبدل .

رسول الله ﷺ يريد أن يكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فيعترض سهيل بن عمرو عليه قائلاً : لا والله لا نؤمن بالرحمن ، اكتب باسمك اللهم .

رسول الله ﷺ يريد أن يكتب : « هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله » ،

فيعترض سهيل بن عمرو قائلاً : لو آمنا بك رسولاً ما قاتلناك ، اكتب اسمك واسم أبيك . بينما نرى اليوم فى جيلنا المنكود ، وفى أمتنا التى استبدلت القومية بالدين ، نجد كل إعلام هذه الأمة ينصب على كل شيء عدا هذه المحاور الثلاثة .

إن اللواء المرفوع والفكر المطروح عند دعاة القومية المعتدلين ، وهو الفكر الذى يلقن للطلبة فى المدارس ، ويقدم للبشرية فى وسائل الإعلام هو فكرة الإيمان بالله .

وليست فكرة الإيمان بالله الواحد ، حتى يرضى النصارى واليهود والمجوس والذين أشركوا والذين ارتدوا ، فهذه الفكرة لا تزعج أحداً من هؤلاء .

ولا نتحدث عن دعاة القومية المتطرفين الذين يرفضون حتى فكرة الإيمان بالله ليحافظوا على وحدة القاعدة الفكرية بينهم وبين الملحدين الشيوعيين فى الأرض .

إن اللواء الأول واللواء الثانى يعنيان الردة الكاملة .

فاللواء الأول ردة إلى الجاهلية الوثنية قبل الإسلام .

واللواء الثانى ردة إلى الإلحاد الحديث فى الأرض التى لا مثيل لها فى تاريخ البشرية من قبل .

واللواءان يعنيان إلغاء الإسلام والقرآن ورسالة الرسول ﷺ .

السمة الرابعة

الدعوة عامة

وذلك فى أول إعلان لهذا الدين فى الأرض أعلنت فيه عالمية الدعوة : « إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة » .

فليست رسالة محلية مرتبطة بمكان معين أو زمان محدد ، إنما هى رسالة البشرية كافة ومن أجل هذا كانت اللبنات الأولى للدعوة تمثل هذه العالمية الشاملة . فصهيب سابق الروم وبلال سابق الأحباش وهذان كانا من أوائل من دخل فى هذا الدين الذى لا يفرق بين عربى وأعجمى ، ولا فضل فيه لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح .

وكان لهاتين القضيتين أكبر الخطر على المجتمع المكى الجاهلى :

القضية الأولى : قضية الوحدانية ـ لا إله إلا اللّه ـ وهى تعنى نقض عقيدة المجتمع الجاهلى كله .

القضية الثانية : قضية المساواة فى الأصل البشرى وهى تعنى نقض أكبر قيم هذا المجتمع .

وكل واحدة كانت كفيلة لأن تشعل حرباً لا يهدأ أوارها بين المجتمعين .

ولو كانت القضية ذات منطلق سياسى ، لكان آخر ما يجب طرحه هو هاتان القضيتان لتجنب المواجهة مع قريش، وفى الساحة عناصر كثيرة مشتركة يمكن أن تجمع بين محمد ﷺ وقريش من محاولات التحرير، والتخلص من الطغيان الفارسى والرومى ، وتقديس البيت، وبناء التجارة ، وإصلاح ذات البين العربى ، ووحدة هذا الصف تحت قيادة واحدة. إن أكبر ما صدم به « الملأ » من قريش وغيرها ، حسب التعبير القرآنى ، هو هاتان القضيتان :

ـ أن يشهدوا أن لا إله إلا اللّه .

ـ وأن يعتقدوا بأن مواليهم وعبيدهم من الممكن أن يكونوا خيراً منهم .

وحتى نعرف مدى تغلغل هذه العقيدة فى نفوسهم ، ومدى تأصل العصبية الجاهلية فى قلوبهم نقفز عشرين عاماً إلى الأمام إلى فتح مكة ، ونشهد بلالاً الحبشى رضي الله عنه يصعد على ظهر الكعبة ، ويعلن كلمة التوحيد فيها. فماذا يكون الموقف ، وقد تحطمت كل المقاومة المكية .

تقول جويرية بنت أبى جهل :

قد لعمرى رفع لك ذكرك،أما الصلاة فسنصلى،واللّه لا نحب من قتل الأحبة أبداً. ولقد كان جاء أبى الذى جاء محمداً من النبوة فردها وكره خلاف قومه .

وقال خالد بن أسيد :

الحمد للّه الذى أكرم أبى فلم يسمع هذا اليوم !

وقال الحارث بن هشام :

واثكلاه ! ليتنى مت قبل هذا اليوم ! قبل أن أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة .

وقال الحكم بن أبى العاص :

هذا والله الحدث العظيم ، أن يصيح عبد بنى جمح على بَنيَّة أبى طلحة !

وقال سهيل بن عمرو ـ وكان أعدل الجميع :

إن كان هذا سخطاً لله فسيغيره ، وإن كان لله رضىً فسيقره .

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم [1] .

وبذلك يفقه الدعاة درساً خطيراً من هذه السمة ، هو أن الوحدانية والرسالة هما محورا أىّ دعوة مع العدو ، ولا يمكن أن يكون أى لقاء فكرى دونهما ، كما يفقهون أن عالمية الدعوة فوق المساومات .

السمة الخامسة

سرية التنظيم (الاستتار بدار الأرقم)

لابد للمحافظة على سرية التنظيم من اختيار مركز سرى بعيد عن الأعين يتم فيه اللقاء بين الجنود مع بعضهم ، وبين القيادة وجنودها ، بحيث لا تعرفه استخبارات العدو . ولو كان التنظيم علنياً لأمكن أن يعلن عن مكان اللقاء فى نوادى مكة ، بل يمكن أن يكون اللقاء فى الكعبة حيث منتدى قريش كلها . إن مثل هذا التجمع المعلن يدفع مكة مباشرة إلى فضه والقضاء عليه ، كما يدفع مباشرة إلى الصدام المسلح بين الفريقين . ولعل دار الأرقم قد بقيت مجهولة على قيادة مكة عامين كاملين ، فلم نسمع من حوادث السيرة ما يدل على معرفتهم لها إلا من خلال حادث إسلام عمر رضي الله عنه فى السنة الخامسة ، ولعله لا يعرفها بالتحديد ، ولعل مكة لاتعرفها بالتحديد . فلقد كان جواب عمر رضي الله عنه عنه لنعيم ابن عبد الله :

(. . . اذهب إلى محمد فى دار عند الصفا) .

ولعل قريشاً قد لاحظت بعض التوارد عند الصفا لأتباع محمد ﷺ ولم تكن تعرف بالضبط فى أى دار .

وكانت التعمية والمبالغة فى السرية كفيلة أن تموه الأمر على قريش لسببين أو ثلاثة :

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ٣٩١ .

السبب الأول : إن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه ، فما كان يخطر ببالها أن يتم لقاء محمد وأصحابه بداره .

السبب الثانى : إن الأرقم بن أبى الأرقم ﷺ من بنى مخزوم ، وقبيلة بنى مخزوم هى التى تحمل لواء التنافس والحرب ضد بنى هاشم ، فلو كان الأرقم معروفاً بإسلامه فلا يخطر فى البال أن يكون اللقاء فى داره ؛ لأن هذا يعنى أنه يتم فى قلب صفوف العدو .

السبب الثالث : إن الأرقم بن أبى الأرقم ﷺ كان فتىً عند إسلامه ، فلقد كان فى حدود السادسة عشرة من عمره ، ويوم تفكر قريش فى البحث عن مركز التجمع الإسلامى، فلن يخطر فى بالها أن تبحث فى بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد ﷺ ، بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه ، أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام .

فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب فى أحد دور بنى هاشم، أو فى بيت أبى بكر الصديق ﷺ ، أو فى بيت عثمان بن عفان أو غيرهم.

ومن أجل هذا نجد أن اختيار هذا البيت كان فى غاية الحكمة من الناحية الأمنية ، ولم نسمع أبداً أن قريشاً داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت مكان اللقاء، إنما كان أقصى ما وصلت إليه هو شكها أن يكون اللقاء فى دار عند الصفا.

ولقد شهدنا مكان هذه الدار قبل أن تزال معالمها بجوار الصفا، لكن من الصعب أن نتصور موقعها بين بيوتات مكة ، ولم نجد فى كتب السيرة وصفاً محدداً لها .

السمة السادسة

القرآن مصدر التلقى

وهو أمر أحوج ما يكون الدعاة إليه، فلقد كان تلقى القرآن يتم هناك ، وحين ينصرف المسلم بزادٍ حصيلته بضع آيات من القرآن نزل بها روح القدس على قلب محمد ﷺ، كانت هذه الآيات كفيلة أن تنشئ هذا الجيل القرآنى الفريد . ولم يكن هذا الجيل يتلقى إلا هذا الوحى من القرآن أو من حديث رسول الله ﷺ ، فينزع به كل أوضار الجاهلية وعقائدها وقيمها، وتنسكب فى قلبه المعانى الجديدة الآتية إليه من الله رب العالمين.

كان هذا اللقاء اليومى الدائم هو الذى يغير هذا الواقع البشرى ، وتتفاعل النفوس بهذا الوحى المنزل ، فيجد نفسه إنساناً جديداً غير ذى قبل ، إنساناً جديداً بقيمه، بمشاعره ، بأفراحه وأتراحه ، بغضبه ورضاه ، بحبه وبغضه ، بأمله وألمه، باهتماماته وشواغله .

ولقد حرص القائد المربى عليه الصلاة والسلام فى هذه المرحلة على توحيد مصدر التلقى وتفرده ؛ ألا وهو القرآن ، لقد كان هذا الجيل أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، فلم يكن ليتلقى الثقافة البشرية التى اختلط فيها الحق بالباطل ، لقد كان بعيداً عن فلسفة اليونان وعلوم الرومان وحكمة فارس ، لقد عاش هذا الجيل سعيداً بوحى الله فقط ، يتلقاه من فم رسول الله ﷺ. وعندما رأى رسول الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ فى صحيفة من التوراة غضب وقال : « لو كان موسى حيًا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى » (١) .

ومن أجل هذا نرى أن يكون منهج التلقى الأول للدعاة منبثقاً كله من القرآن فى المرحلة الأولى ، كل ما يأخذه الشاب المسلم فى هذه المرحلة يدور حول هذا المحور ، حتى معلوماته فى الفقه والحديث والتفسير والتاريخ ، ومعلوماته عن الجاهلية وأفكارها ، تنطلق من هذا المحور ، فلا يفرد علم مستقل بذاته إنما يتلقى هذه المعلومات كلها من خلال الآية القرآنية .

السمة السابعة

اللقاء المنظم المستمر

فاللقاء الدائم هو الذى يربط الجنود بقيادتهم ، وهو الذى يمد الأفراد والجنود بالثقة القوية بالنفس ، ويشحذ عزائمهم على الاستمرار فى هذا الدرب ، يأتى الصحابى لدار الأرقم فيقص على إخوانه وعلى نبيه محمد ﷺ ما عاناه فى هذا اليوم ، وما جرى معه من نقاش، وما استمع إليه من آراء وما أدلى به من حجة فيقوم إمام المربين عليه الصلاة والسلام بالتوجيه المناسب له ، يثنى على موقفه أو يصححه له ، أو يأمره بتركه . إن اللقاء المباشر الدائم بين القيادة وجنودها هو الذى يحل المشاكل المستعصية ، وهو الذى يقطع دابر الفتنة ، وهو الذى يحرق

(١) رواه أبو يعلى عن حماد عن الشعبى عن جابر .

عوامل سوء الظن وقالة السوء ، وهو الذى يمتن الصف الداخلى ، ويجعل وشائجه مترابطة ملتحمة متراصة . أما الانقطاع عن اللقاءات ، والبعد بين القيادة والجنود ، فيضعف الثقة أولاً ، ويفتح الثغرات العديدة فى الصف الداخلى ثانياً ، ويجعل البناء العقدى ضعيفاً رخواً ثالثاً . وهو أخطر النتائج .

السمة الثامنة

الصلاة خفية فى الشعاب

وكانت الصلاة فى الغداة والعشى ، أما صلاة الغداة فكان المسلمون يصلونها أحياناً فى الكعبة وقبل أن تلتفت لهم الأنظار .

(وكان ﷺ يخرج إلى الكعبة أول النهار فيصلى صلاة الضحى ، وكانت صلاة لا تنكرها قريش ، وكان إذا صلى فى سائر اليوم بعد ذلك قعد علىٌ أو زيدٌ رضي الله عنهما يرصدانه . وكان ﷺ وأصحابه إذا جاء وقت العصر تفرقوا فى الشعاب فرادى ومثنى وكانوا يصلون الضحى والعصر . . . وكانت الصلاة ركعتين ركعتين قبل الهجرة) (١) .

لأن الصلاة المعلنة تعنى المواجهة المباشرة مع مكة ، والإعلان هو للدعوة ، أما إعلان العبادة فقد تأخر حتى أسلم عمر رضي الله عنه .

فلا مندوحة عن الصلاة إذن فى أى مرحلة من المراحل ، ولكن سريتها وجهريتها منوطة بالجو العام وسماح الجاهلية بها .

فنجد فى مجتمعاتنا المعاصرة أن الصلاة بحكم توارث الإسلام على هذه الأرض يسمح بها بشكل علنى فى المساجد فى الحالات العادية وإن كانت موطن شبهة بالنسبة للشباب المسلم ، غير أنها فى بعض الأحيان تكون خطراً ماحقاً على الشخص الذى لم تتحدد هويته بعد. إن الصلاة تعنى الانتماء إلى الإسلام ، والذى يحافظ على صلاة الجماعة مظنة خطر.

ومع هذا فنرى أنه لا مندوحة عن صلاة الجماعة لكل أخ مسلم ، إلا إذا كان غير منكشف الهوية حيث إنه يؤدى دوراً معيناً فى صفوف العدو . أما إذا لم يكن

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ١٧ .

كذلك ، وفى طور جهرية الدعوة فلاحرج فى ذلك ، إذا لم تؤد الصلاة إلى خطر أكيد على نفسه وروحه ، فالخوف عذر من الأعذار المبيحة لترك صلاة الجماعة وفى هذه الحالة يمكن اللجوء إلى الطريقة التى نحن بصددها وهى صلاة الجماعة فى غير المسجد ، وفى الأماكن التى ليست هى مظنة شبهة عبادة . كما يمكن أن تؤدى فى مراكز تجمع الإخوة الدعاة إلى اللّه .

لقد لاحظنا فى مرحلة الدعوة وسرية التنظيم ، أنه لابد من الصلاة ، ولكن بصورة فردية وسرية ، أما فى هذه المرحلة؛ مرحلة جهرية الدعوة وسرية التنظيم، فلابد من الصلاة بصورة جماعية فى المساجد ، وحين تصبح الصلاة فى المساجد موطن خطر على النفس أو الروح أو المال . فيمكن أن تتم صلاة جماعية مصغرة فى أماكن لقاءات الإخوة .

إنه لابد من الصلاة التى تصل الإنسان بخالقه،ولا خير فى دين لا صلاة فيه[1] ـ كما يقول عليه الصلاة والسلام : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » [2] .

السمة التاسعة

التركيز على الجانب الروحى

فلا شىء أكبر أثراً فى النفس فى مرحلة البناء من التركيز على العبادة والطاعة والنوافل. فهى التى تصل القلب باللّه ، وتجعله أكبر من المحنة ، وأعصى على الفتنة ، وأثبت على الحق .

إنها مرحلة العبادة والتبتل وقيام الليل وناشئته .

فقد روى البزار عن محمد بن عقيل بن جابر قال : اجتمعت قريش فى دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسماً يصد الناس عنه فقالوا: كاهن. قالوا : ليس بكاهن . قالوا: مجنون . قالوا: ليس بمجنون . قالوا: ساحر. قالوا : ليس بساحر . فتفرق المشركون على ذلك . فبلغ ذلك النبى ﷺ فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ** ... ﴾ ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** ... ﴾ [3].

---

(١) ابن هشام ، وقد ثقيف ٤/١٣٧ . دار الجيل . (٢) رواه مسلم ١/٨٨ ح ١٣٤ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ، سورة المزمل ٣ / ٥٦٢ .

كما روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قولها :

إن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة. فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها فى السماء اثنى عشر شهراً ، ثم أنزل الله التخفيف فى آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة (١) .

وقيام الليل المفروض فى البدء هو دورة تدريبية عنيفة على الالتزام والطاعة لأمر الله عز وجل استمر عاماً كاملاً ، كما وجه القرآن الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ [المزمل : ١ ـ ٧] .

فالليل كله إلا قليل منه واجب القيام .

وقيام الليل ليس هدفاً لذاته ، وما يفعل الله بعذاب عباده من شيء ، ولكنها التربية الإيمانية على الصلة الوثيقة بالله عز وجل ، فهو وسيلة للقربى من الله تعالى ، وسيلة لذكر الله والتبتل إليه والتوكل عليه .

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً . رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ... ﴾ [المزمل : ٨ ، ٩] .

وذكر الله تعالى والتبتل إليه والتوكل عليه والعبادة له هى السلاح الوحيد فى المعركة. وهو الذى يمد المؤمنين بالصبر على البلاء ، وتحمل الأذى ، والإغضاء عن الإهانة، هو السلاح الوحيد فى هذه المرحلة، التى لم يسمح فيها بالمواجهة المباشرة.

﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً . وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ... ﴾ [المزمل : ١٠ ، ١١] .

فما أحوج الدعاة إلى الله وهم يحملون لواء الدعوة إلى الله ، ويلقون فى سبيلها الأذى والاضطهاد إلى هذا السلاح الوحيد الذى يثبت أقدامهم ، ويثبت قلوبهم . وإن الحركة الإسلامية ما لم تعن فى مثل هذه المرحلة بهذا الجانب العبادى ، الجانب الروحى ، وقيام الليل المتصل الدؤوب ، والدورات المتكررة على الإحياء المستمر ، فستجد جنودها يسقطون واحداً تلو الآخر ، وينهارون تحت وقع المحنة .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، سورة المزمل ٣ / ٥٦٤ .

ولابد من الإشارة إلى أن قيام الليل يبقى أمراً نظرياً غير قابل للتطبيق، ما لم يكن رصيد الأخ الداعية عظيماً من حفظ القرآن ؛ إذ إن الأخ الذى لا يملك من القرآن إلا بضع آيات يكررها فى صلاته كيف يقوم الليل ؟! وكيف يتحرك قلبه بالخشوع ؟! وكيف يجد لذة الطاعة والعبادة ؟! ولم تخالط لذة القرآن بشاشة قلبه، وصار القرآن ملء حياته وروحه وسمعه وبصره ، ما إن يصف قدميه للعبادة فى سبيل الله، حتى يفتح معين القرآن المتفجر من قلبه، فيتلو ما شاء الله أن يتلو، ويعيش فى جو الترغيب والترهيب، ويقف عند حكمه وأحكامه.

فى المدة الأخيرة لقد أصبح قيام الليل عند كثير من شبابنا المسلم مناسبة شهرية أو موسمية أو سنوية ، وحين يتم ، ففى سور محددة ، معدودة يتعاون مجموع الشباب فيها حتى يؤدوها تلاوة وعبادة . إن المنهج الذى يجب أن يتربى الشباب عليه فى أول الطريق هو المنهج القرآنى ـ كما ذكرنا من قبل ـ فلا يكفى آن يكون القرآن هو محور المنهج كله ، ومحور الثقافة المقدمة للأخ فقط ، بل لابد كذلك من أن يكون حفظ القرآن هدفاً رئيسًا من أهداف المنهج ، وبخاصة الفتيان والفتيات القادرين على الحفظ فى سنهم المبكرة .

إن منهج التربية الحركى الذى تضعه الجماعة لابد أن ينتهى بالشاب المسلم وقد حفظ الكثير من القرآن فى سن العشرين ، ليكون زاده فى الطاعة والتنفل والتهجد وناشئة الليل ، وعندئذ يعرف لذة العبادة ، ولذة الطاعة ، ولذة القيام ، يذوق لذة الذكر ولذة التوكل . كما أن المنهج التربوى فى هذه المرحلة لابد أن يركز على ذكر الله عز وجل ، على التهليل والتكبير ، والتحميد والتسبيح ، على الصلوات على النبى ﷺ ، على الأوراد المأثورة وعلى الأذكار المطلقة التى لا تنقطع ليل نهار : ﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا** ﴾ .

إن الشاب المسلم الذى يمضى مراهقته وفتوته هائماً بالعبادة والطاعة ، مواظباً على تلاوة القرآن ، ناصباً قدميه فى الليل فى طاعة الله ، يذكر الله خالياً فتفيض عيناه ، قلبه معلق بالمساجد مستغرق فى الأذكار المطلقة والمأثورة يئز قلبه أزيزاً بالقرآن فى جوف الليل كأزيز النحل ، طبع القرآن فى قلبه وفكره ـ هو الشاب النموذج الذى يجب أن تحرص الحركة الإسلامية على بنائه ، وما لم تعط هذا الأمر حقه من العناية، فسيكون البناء هشاً ينهار تحت الضربات الأولى للطاغوت .

هذا هو منهج البناء الأول من خلال سورة المزمّل . وتكون حرارة المواجهة

مع الطاغية تذوب أمام حرارة العبادة والتبتل للّه ، والثقة بنصر اللّه وانتقامه من الكافرين .

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً . إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً . وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً . يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾

[المزمل ١١ ـ ١٤]

السمة العاشرة

الدفاع عن النفس عند الضرورة

فإذا كان العدو يريد أن يؤذى المسلمين ، وكان بإمكان المسلم أن يرد هذا الاعتداء عن نفسه فلا ضير فى ذلك ، وبخاصة حين يكون الأذى منصباً على الجسد .

يؤكد هذا المعنى ما ورد عن سعد رضي الله عنه فى قصة الصلاة فى الشعاب الآنفة الذكر (. . . فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفرٍ من أصحاب رسول اللّه ﷺ فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بعير فشجه ، فكان أول دم هريق فى الإسلام) (١) .

وكذلك قصة عثمان بن مظعون يوم عاد من الحبشة،ودخل فى جوار الوليد ابن المغيرة، ثم ترك جواره إلى جوار اللّه ، ورده على الشاعر لبيد مقالته ، فثار الناس إليه وضربهم وضربوه حتى اخضرت عينه من الضرب (٢).

ويؤكد هذا المعنى كذلك ما ورد فى قصة إسلام عمر بن الخطاب من أنه مكث يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم (٣) .

لكن رد الاعتداء لم يكن على إطلاقه ، فلم يكن يقدر على هذا الأمر إلا من كان ذا شكيمة قوية ومنعة من قومه ، أما الضعفاء فلم يتمكنوا من هذا الموقف .

ونفقه من هذه السمة أن رجال الحركة الإسلامية ليسوا على مستوى واحد فى

(١) تهذيب السيرة لابن هشام ص ٥٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١/ ٣٧٠ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٤٩٩ وقال فيها : « ورُوى عن ابن عمر بسند صحيح » .

المواجهة، فيمكن أن يكون فيهم الممتنع بقوته أو عشيرته أو مركزه ، ويمكن لأمثال هؤلاء أن يتحملوا المواجهة ويواجهوا الاعتداء بالمثل ، كما أكد القرآن الكريم فى وصفهم فى معرض الثناء عليهم : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾

[الشورى : ٣٩]

ويمكن أن يكون فيهم الضعيف الذى يصبر على الأذى فى سبيل اللّه .

ولرد الاعتداء دور إيجابى فى رفع معنويات العامة ، الذين يُقدِّرون القوة ويعجبون بها بل فى ذلك تشجيع لهم للانضمام إلى صف الدعوة تأثراً بمثل هذه المواقف .

فجواب عثمان بن مظعون للوليد بن المغيرة يدل على مدى الثقة النفسية العميقة لديه :

(إننى فى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس ، وإن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى اللّه)[1] .

لكن لابد من الملاحظة أن هذا الدفاع لا يأخذ أبداً طابع التحرش والاعتداء ، أو طابع الاستفزاز ، إنما كان محدوداً بأطر رد الاعتداء على الحقوق المشروعة للإنسان العادى فى كل مجتمع ؛ لضمان حق العقيدة وحق العبادة الشخصى ، والذى يؤذى المسلم فى هذا الحق يرد أذاه عنه إن أمكنه ذلك .

السمة الحادية عشرة

تحمل الأذى والاضطهاد فى سبيل اللّه

فلقد انكفأت كل قبيلة على أبنائها ومواليها تذيقهم ألوان العذاب وصنوفه لتصرفهم عن دين اللّه وتصدهم عنه،ونذكر بعض النماذج فى ذلك : (كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه ، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة فى المال والجاه ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به .

وكان عم عثمان بن عفان يلفه فى حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته .

---

(١) السيرة لابن هشام ١/ ١/ ٣٧٠ .

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته ، وأخرجته من بيته ، وكان من أنعم الناس عيشاً ، فتخشف جلده تخشف الحية .

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحى ، فكان أمية يضع فى عنقه حبلاً ، ثم يسلمه إلى الصبيان ، يطوفون به فى جبال مكة، حتى يظهر أثر الحبل فى عنقه، وكان أمية يشدّه شدا ثم يضربه بالعصا ، وكان يلجئه إلى الجلوس فى حر الشمس، كما كان يكرهه على الجوع، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول : لا واللّه لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فيقول وهو فى ذلك : أحد أحد ، حتى مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك فاشتراه بغلام أسود ، وقيل : بسبع أواقٍ أو بخمسٍ من الفضة وأعتقه .

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولىً لبنى مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون ـ وعلى رأسهم أبو جهل ـ يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها ، ومر بهم النبى ﷺ وهم يعذبون فقال : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » ، فمات ياسر من العذاب وطعن أبو جهل ـ سمية أم عمار ـ فى قلبها بحربة فماتت ، وهى أول شهيدة فى الإسلام ، وشددوا العذاب على عمار بالحرّ تارة ، وبوضع الصخر أحمر على صدره أخرى، وبالتغريق أخرى ، وقالوا : لا نتركك حتى تسب محمداً ، أو تقول فى اللات والعزى خيراً . . . وكان أبو فكيهة ـ واسمه أفلح ـ مولى لبنى عبد الدار ، فكانوا يشدون فى رجله الحبل ، ثم يجرونه على الأرض .

وكان خباب بن الأرتّ مولىً لأم أنمار بنت سباع الخزاعية ، فكان المشركون يذيقونه أنواعاً من التنكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذباً ، ويلوون عنقه تلوية عنيفة ، وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتهبة ، ثم وضعوا عليه حجراً حتى لا يستطيع أن يقوم. وكانت زنيرة والنهدية وابنتها وأم عَبْيس إماء أسلمن، وكان المشركون يسومونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا ، وأسلمت جارية لبنى مؤمل ـ وهم حَيٌّ من بنى عدى ـ فكان عمر بن الخطاب ـ وهو يومئذ مشرك ـ يضربها حتى إذا ملّ قال : إنى لم أتركك إلا ملالة .

وابتاع أبو بكر هذه الجوارى فأعتقهن ، كما أعتق بلالاً وعامر بن فهيرة .

وكان المشركون يلفون بعض الصحابة فى إهاب الإبل والبقر ، ثم يلقونه فى

حر الرمضاء ، ويلبسون بعضاً آخر درعاً من الحديد ، ثم يلقونه على صخرة ملتهبة .

وقائمة المعذبين فى اللّه طويلة مؤلمة جداً ، فما من أحدٍ علموا بإسلامه إلا تصدوا له وآذوه) [1] .

السمة الثانية عشرة
السماح للضعفاء فى إظهار تغيير دينهم

فعن سعيد بن جبير قال :

(قلت لعبد اللّه بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول اللّه ﷺ من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟ قال : نعم واللّه . إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون اللّه ؟ فيقول: نعم ، حتى إن الجعل ليمرّ بهم فيقولون له : هذا الجعل إلهك من دون اللّه ؟ فيقول : نعم . افتداءً منهم مما يبلغون من جهده [2] .

وما روى عن عمار رضي الله عنه حين كانوا يعذبونه بالحر تارة ، وبوضع الصخر أحمر على صدره أخرى ، وبالتغريق ، وقالوا : لا نتركك حتى تسب محمداً أو تقول فى اللات والعزى خيراً ، فوافقهم على ذلك مكرهاً ، وجاء باكياً معتذراً إلى النبى ﷺ ، فأنزل اللّه: ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ [النحل : ١٠٦] .

وهكذا نرى أن الأمر متفاوت بين السمة السابقة وهذه السمة ، فالسابقة تحدثنا عن الذين استشهدوا تحت التعذيب ، بينما تحدثنا هذه السمة عن الذين اضطروا للتظاهر بالتراجع عن الدين، وقد روى أن رسول اللّه ﷺ قال لعمار وهو يقص عليه التعذيب الذى لاقاه: « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئن بالإيمان .

قال : « إن عادوا فعد » .

---

(١) أورد هذه النماذج جميعاً المباركفورى فى كتابه : الرحيق المختوم : ص ١٠١ ـ ١٠٤ . نقلا عن مصادر متعددة من الحديث والسيرة ، وراجع كذلك فيهما سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢/ ٤٧٦ ـ ٤٨٣ .

(٢) تهذيب السيرة النبوية لابن هشام ص ٧٢ .

وتفاوت المستويات إذن ممكن فى الحركة الإسلامية بين الصبر على التعذيب حتى الموت الذى يمثل العزيمة ، وبين التظاهر بالكفر الذى يمثل الرخصة . وإن كان الموقفان جائزين ،غير أن الصبر على البلاء وتحمل الأذى، ولو أدى إلى الاستشهاد فى سبيل اللّه، أفضل عند الله وأكرم .ويتعين أحياناً طريق العزيمة حين يكون الداعية ذا مركز خطير فى مجتمعه ، أو بمثابة القدوة يعرف الإسلام من خلاله؛ لأن تراجعه يضعف ثقة الناس بهذه العقيدة ويزلزل الضعفاء فيتراجعون خوفاً وخوراً ، ولا شيء أشد أثراً فى يقين الناس من ثبات الرجال على عقائدهم، لكننا لا نقيم النكير على من تراجع تحت وطأة التعذيب ، بل نجد له عذراً فى ذلك .

السمة الثالثة عشرة

محاولة إنقاذ المستضعفين بكل الوسائل الممكنة

وكان الذى يحمل عبء هذه المحاولة أبو بكر رضي الله عنه ، فلقد كان الثرى الوحيد فى صفوف المسلمين (فلقد أعتق على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب بلال سابعهم : عامر بن فهيرة وأم عبيس وزنيرة ـ وأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ! فقالت : كذبوا وبيت الله ،ما تضر اللات والعزى وما تنفعان ! فرد الله بصرها ـ وأعتق النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار ، فمرَّ بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول : واللّه لا أعتقكما أبداً !فقال أبو بكر: حِلِّ يا أم فلان ! فقالت : حِل أنت أفسدتهما فأعتقهما . قال : فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد أخذتهما وهما حرتان ، أرجعا إليها طحينها . قالتا: أو نفرغ يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟ قال : ذلك إن شئتما .

ومر بجارية بنى مؤمل ، وكانت مسلمة ، وعمر بن الخطاب يعذبها ، فابتاعها أبو بكر فأعتقها، قال أبو قحافة لأبى بكر: يا بنى ، إنى أراك تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك ! فقال أبو بكر : يا أبت ، إنى إنما أريد ما أريد للّه عز وجل)[1] . وكان هذا التكافل الاجتماعى بين أفراد التجمع الإسلامى قمة من قمم المواساة الإنسانية. فلقد رفع الإسلام

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣١٨ ، ٣١٩ .

كرامة هؤلاء العبيد ، بعد أن كانوا متاعاً من المتاع. بل كان المتاع أكرم منهم ، والبهيمة أشد إكراماً منهم . جاء الإسلام فرد عليهم إنسانيتهم وآدميتهم ، وأصبحوا بالإسلام أصحاب عقيدة وفكرة ، يناقشون بها ، وينافحون عنها ، ويجاهدون فى سبيلها ، ويتعذبون من أجلها . وكان إقدام أبى بكر ﷺ على شرائهم ثم إعتاقهم ، دليلاً على عظمة هذا الدين ومدى تغلغله فى نفسية الصديق رضوان الله عليه.

لقد أحس العبيد والموالى من أبناء هذا الدين الجديد أنهم أسرة واحدة وبيت واحد . يحمل غنيهم فقيرهم ، ويؤثر سيدهم عبدهم . فحق له ﷺ أن يأتيه الثناء من فوق سبع سموات : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذي يُؤْتي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وما لأحد عندهُ من نِعْمَةٍ تُجْزىٰ . إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١].

وما أحوج الحركة الإسلامية اليوم إلى أن تحيا هذا الواقع الأرفع ، وتعيش هذه المشاعر السامية ، ويكون أبناؤها من التعايش والتلاحم والتعاضد حيث يحس المسلم أنه ابن لهذه الأسرة ، هى أكبر عنده من أبيه وأمه وأخيه وأخته وزوجه . . . وما نشهده اليوم من التكافل بين المجاهدين الإسلاميين والموسرين فى الحركة الإسلامية الواحدة ، وحمل الأرامل والثكالى والمشردين، وأزواج المعتقلين والمسجونين وعائلاتهم،لتعيد لنا هذة الصورة الصديقية الأولى ، وما تقدم عليه النسوة وهن يتبرعن بحليهن وأموالهن لغوث المنكوبين والمنكوبات ، لدليل أصيل على عظمة هذا الدين الذى يجعل أبناءه أسرة واحدة ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له مائر الجسد بالسهر والحمى .

السمة الرابعة عشرة

حماية الدعوة عن طريق الهجرة

فالبقاء بين براثن الشرك حتى يتمكن الشرك من إبادة المسلمين عملية خرقاء ، صحيح أن الجندى يتحتم عليه أن يتحلى بالصبر ، ويتقبل المصيبة بصدر رحب ويثبت على دينه ، لكن مهمة القيادة الأساسية هى حماية جنودها من الخطر ، غير أن هذه الحماية لا تكون على حساب العقيدة أو الشريعة ، فى هذا الإطار تتحرك القيادة ، ومن أجل هذا نرى سيد القادة محمداً عليه الصلاة والسلام

يبحث فى الأرض كلها عن مكان آمنٍ ، ولا تستطيع يد الشرك أن تطاله . وكان هذا المكان هو أرض الحبشة .

فقد روى ابن هشام عن ابن إسحاق فى السيرة أن رسول اللّه ﷺ قال للمسلمين :(«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لايظلم عنده أحد ـ وهى أرض صدق ـ حتى يجعل اللّه لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول اللّه ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى اللّه بدينهم . فكانت أول هجرة فى الإسلام) (١) .

(. . . وكان خروجهم فى رجب من السنة الخامسة من المبعث ، فأقاموا بالحبشة شعبان ورمضان . وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاؤوا البحر فلم يدركوا منهم أحداً ، ثم رجعوا إلى مكة فى شوال لما بلغهم أن قريشاً صافوا رسول اللّه ﷺ وكفوا عنه . . .

ولما استمر رسول اللّه ﷺ على سب آلهتهم عادوا إلى شر ما كانوا عليه، وازدادوا شدة على من أسلم ، فلما قرب مهاجرة الحبشة من مكة وبلغهم أمرهم توقفوا عن الدخول ، ثم دخل كل رجل فى جوار رجل من قريش ، ثم اشتد عليهم البلاء والتعذيب من قريش ، وسطت عليهم عشائرهم ، وصعب عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حسن جواره ، فأذن لهم رسول اللّه ﷺ فى الخروج إلى الحبشة مرة ثانية فخرجوا . فكان خروجهم الثانى أشق عليهم وأصعب ، فكان عدة من خرج فى هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلاً إن كان فيهم عمار بن ياسر فإنه يشك فيه ، قاله ابن إسحاق . ومن النساء تسع عشرة امرأة . . .) (٢) .

وهكذا نجد أن الثقل الكبير للمسلمين قد انتقل إلى الحبشة ، فأن يغادر مكة ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة يعنى هذا أن قوة ضخمة وتجمعاً كبيراً قد قام فى قطر آخر وبعيدٍ عن مكة وعن متناول يدها ، يستطيع أن ينتشر ويتضخم ويهدد وجود مكة ذاتها .

وهذا المنطلق لم يكن ليغيب عن ذهن رسول اللّه ﷺ ، وهو البحث عن قاعدة صلبة ومكانٍ آمنٍ آخر للدعوة غير مكة ، حيث لا تستطيع قريش مهما بلغ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٢) مختصر السيرة النبوية لمحمد بن عبد الوهاب ص ٨٢ .

من عتوها أن تنهى الوجود الإسلامى فى الأرض ، وهذا ما يحسن أن تنتبه الحركة الإسلامية إليه فى تخطيطها، حيث لا تضع كل طاقاتها البشرية والمادية فى أرض واحدة ، تكون معرضة فيها للإبادة ، بل تعدد أماكن تجمعها وتواجدها ، بحيث تستطيع لو فقدت موقعاً معيناً أن تنتقل إلى موقع ثانٍ تنطلق منه وتواجه الجاهلية من خلاله .

ولا شك أن مغادرة الشباب الإسلامى مواقعه وأماكنه إلى أرض جديدة ، يعانى فيها آلام الغربة والوحشة عن الأهل والوطن،هو أمر صعب وتضحية كبيرة، لا تتحقق إلا إذا كان هذا الشباب على مستوىً من الإيمان العظيم يتجاوز به هذه العقبات ، وأن تكون عقيدته وحبه لها أكبر من حبه لوطنه ، وحنينه لقومه ، وارتباطه بأرضه . أن تكون رابطة العقيدة أعمق غوراً فى نفسه ، وأشد أثراً فى قلبه من أية رابطة أخرى مهما سمت وارتفعت :

﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وخاصة أن الهجرة لهذه الأرض النائية ، والمعيشة بين قوم غير قومهم يتكلمون بلغة غير لغتهم ، ولهم عادات وتقاليد ودين غير عاداتهم ودينهم وتقاليدهم ، هى أشق على النفس وأقسى على الروح فما لم يكن جنود الحركة الإسلامية على المستوى المذكور من الإيمان ، فلن تنجح القيادة فى تنفيذ خطتها ومخططاتها .

إنه لابد أن يتربى الشباب المسلم على أن تكون عقيدته أغلى عليه من كل شىء فى حياته ، وأن يكون ارتباطه بدينه أقوى من أية رابطة أخرى من أهل أو زوج أو ولد أو عشيرة أو أرضٍ أو مالٍ أو وطن أو مصلحة .

وهذا المستوى الإيمانى العظيم هو الذى جعل هذه الأعداد الكبيرة تهاجر إلى هذه الأرض النائية البعيدة .

إننا ونحن اليوم فى القرن العشرين، وفى وسائل المواصلات الضخمة التى اختصرت الأشهر بالساعات ، وبالارتباط العالمى القائم فى دول الأرض من حيث الاتصال ، لو دعينا إلى الهجرة إلى الحبشة لأحسسنا بثقل ذلك وصعوبته ،

ووجدنا من يتلكأ عن الإجابة . وسماعنا بالحبشة بالذات يجعل الوحشة والرهبة هى المسيطرة على كياننا لو دعينا لذلك .

فكم يا ترى هو المستوى الإيمانى الرفيع لدى تلك العصبة المؤمنة فى الأرض ، وهم يعرفون الأحباش وينظرون إليهم من علٍ على أنهم عرب أقحاح ، وأولئك عجم سود كأن رأس كل منهم زبيبة ، كانوا يترفعون عنهم نسباً وشرفاً ، وهم يرون فى صفوفهم بلال بن رباح الحبشى العبد الأسود . إنها لعمر الحق هجرة نادرة فى التاريخ ، وتعالٍ عن كل قيم الأرض وروابطها فى سبيل اللّه ، وحق لهؤلاء أن يقول لهم رسولُ اللّه ﷺ : « لهم هجرة (أى لمهاجرى يثرب) ولكم هجرتان (أى لمهاجرى الحبشة) » .

السمة الخامسة عشرة

البحث عن مكان آمن للدعوة وقاعدة جديدة للانطلاق

وهو هدف آخر من وراء الهجرة إلى الحبشة غير هدف الحماية لجنود الدعوة وأفرادها، وهذا ما أشار إليه صاحب الظلال ـ سيد قطب ـ رحمه اللّه بقوله: (ومن ثم كان بحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة ، قاعدة تحمى هذه العقيدة وتكفل لها الحرية ، ويتاح لها أن تخلص من هذا التجميد الذى انتهت إليه فى مكة ، حيث تظفر بحرية الدعوة ، وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة . . . وهذا فى تقديرى هو السبب الأهم للهجرة .

ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب، لتكون قاعدة للدعوة الجديدة، عدة اتجاهات . . . سبقها الاتجاه إلى الحبشة، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل ، والقول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية ، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس جاهاً وقوة ومنعة من المسلمين ، غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالى المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا ، إنما هاجر رجال ذوو عصبيات ، لهم من عصبياتهم ـ فى بيئة قبلية ـ ما يعصمهم من الأذى ، ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين، منهم جعفر بن أبى طالب وأبوه وفتيان بنى هاشم معه هم الذين كانوا يحمون النبى ﷺ ومنهم الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ،

وأبو سلمة المخزومى ، وعثمان بن عفان الأموى . . . وغيرهم ، وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة ما كان الأذى لينالهن أبداً ، وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة فى أوساط البيوت الكبيرة فى قريش . وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم ، فراراً من الجاهلية ، تاركين وراءهم كل وشائج القربى، فى بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزاً عنيفاً، وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة بنت أبى سفيان ، زعيم الجاهلية ، وأكبر المتصدين لحرب العقيدة الجديدة وصاحبها ، ولكن مثل هذه الأسباب لا ينفى احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة فى البحث عن قاعدة حرة ، أو آمنة على الأقل للدعوة الجديدة . وبخاصة حين نضيف إلى هذا الاستنتاج ما ورد عن إسلام نجاشى الحبشة ، ذلك الإسلام الذى لم يمنعه من إشهاره نهائياً إلا ثورة البطارقة عليه ـ كما ورد فى روايات صحيحة)[1].

هذه اللفتة العظيمة من سيد ـ رحمه الله ـ لها من السيرة ما يعضدها ويساندها، وأهم ما يؤكدها فى رأيى هو الوضع العام الذى انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة .

فلم نعلم أن رسول الله ﷺ قد بعث فى طلب مهاجرة الحبشة حتى مضت هجرة يثرب وبدر وأحد والخندق والحديبية . والمعروف أن عمرو بن أمية الضميرى ـ مبعوث رسول الله ﷺ إلى النجاشى ـ التقى مع عمرو بن العاص عند النجاشى بعد صلح الحديبية . وكان لكل واحدٍ منهما مهمة عند النجاشى ، أما عمرو بن العاص فلقد اختار حق اللجوء السياسى عند النجاشى بعد صلح الحديبية حيث رأى أن مكة ستفتح بين يدى محمد لا محالة بعد الصلح، ولا جدوى من المقاومة.

وأما عمرو بن أمية الضمرى فلقد كانت مهمته طلب عودة المهاجرين من الحبشة إلى يثرب من النجاشى ، حيث قد انتهت مهمتهم بعد الصلح .

لقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات ، وكان آخر هذا الهجوم والاجتياح فى الخندق حيث قدم عشرة آلاف مقاتل لاستئصال شأفة المسلمين هناك ، وبعد رد الكافرين بغيظهم قال رسول الله ﷺ : « الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم »[2] .

---

(١) فى ظلال القرآن ١/ ٢٩. ط. دار الشروق .

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٩٠ .

فلقد انتهى الخطر فى اجتياح المدينة بعد الخندق ـ كما فى النص النبوى الآنف الذكر ـ وجاء صلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة ليؤكد هذا المعنى ، ويؤكد الاعتراف الرسمى من قريش بدولة المدينة . وحين اطمأن رسول اللّه ﷺ إلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة أمينة للمسلمين ، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين ، عندئذ بعث فى طلب المهاجرين من الحبشة ، ولم يعد ثمة ضرورة لهذه القاعدة الاحتياطية التى كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول اللّه ﷺ لو سقطت يثرب فى يد العدو .

إنه الفقه السياسى الأعظم ، والتخطيط النبوى الأعمق من الرسول ﷺ وهو يمضى فى بناء دولة الإسلام ، ويدرس كافة الاحتمالات المتوقعة ، ويبحث فى كل مكان عن الأرض المناسبة لقيام دولة الإسلام أو لحماية العقيدة فيها . وفعلاً وصل المهاجرون من الحبشة إلى المدينة فوجدوا رسول اللّه ﷺ فى خيبر ، فمضوا إليه هناك والتحقوا به ووصلوا بعد فتح خيبر فقال رسول اللّه ﷺ : « ما أدرى بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر »[1] .

السمة السادسة عشرة

الاستفادة من قوانين المجتمع المشرك (الحماية والجوار)

لقد كان المجتمع الجاهلى يقيم وزناً كبيراً لهذا القانون ، وهو حماية القوى الضعيفَ . فإذا دخل الضعيف فى جوار القوى يتمتع بحمايته التامة ، ويمنع أى اعتداء يقع عليه ، ويعطيه حرية التحرك والتفكير ولا يستطيع العدو أن ينال من هذا المستجير . ولو تم ذلك فإن هذا يعنى أن حرباً تقع بين الفريقين ، ومن أجل هذا فالذى يعلن الإجارة ، لابد أن يكون عزيزاً منيعاً فى قومه ، قادراً على الحماية ، ومدخلاً فى حسبانه كل المفاجآت الممكنة. ولنتعرض إلى نماذج من هذه الإجارة .

لقد كانت الإجارة الأولى فى المجتمع المكى هى إجارة أبى طالب لمحمد رسول اللّه ﷺ.

يقول ابن إسحاق : (وحدب على رسول اللّه ﷺ عمه أبو طالب ومنعه

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٤ .

وقام دونه ، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء . فلما رأت قريش أن رسول الله لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه ، من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه، وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال إلى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ؟ فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم شرى[1] الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا [2] ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله بينها ، فتذامروا [3] فيه ، وحضّ بعضهم بعضاً عليه .

ثم إنهم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنا ومنزلةً وشرفاً فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخي ، إن قومك قد جاؤونى فقالوا لى كذا وكذا ـ للذى كانوا قالوا له ـ فابق علىّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء[4] أنه خاذله ومُسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته، فقال رسول الله ﷺ: « يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ». ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يابن أخى ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ . فقال : اذهب يا بن أخى ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبداً) [5] .

ونلاحظ هذه الملاحظات الثلاث على هذه الإجارة :

١ ـ أن قريشاً حاولت مع أبى طالب أن يدعو ابن أخيه للكف عن الدعوة لهذا الدين الجديد ، وقد فشلت هذه المحاولة ، وهذا ما نتوقعه ونحن نستفيد من

---

(١) شرى : كثر واشتد .
(٢) تضاغنوا : تعادوا .
(٣) تذامروا : حض بعضهم بعضا .
(٤) بداء : رأى .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

قوانين المجتمع الجاهلى، وهى محاولة استصدار قوانين جديدة تحول دون حرية الدعوة .

٢ ـ لجأت قريش إلى التهديد فى المرة الثانية ، ونجحت فى التأثير على أعصاب أبى طالب ، فدعا محمداً رسول الله ﷺ إلى الكف عن الدعوة لهذا الدين ؛ لعجزه عن حمايته وهو فى هذه الصورة . لكن ثبات رسول الله ﷺ على الحق ـ مهما كانت عقباته ـ ثبت أبا طالب ثانية فى حمايته.

ونفقه من هذا التصرف أن فشل الجاهلية فى المرة الأولى ـ من بعض فئاتها ـ لضرب الدعوة لا يثنيها عن هذا الطريق ، فقد تعيد الكرة ثانية وثالثة ، ويقظة الحركة الإسلامية من جهة ، وصلابتها من جهة ثانية هما الكفيلان بإحباط محاولات هذه الفئة المعادية . والحركة الإسلامية بحاجة لأن تستفيد من كل تناقضات المجتمع الجاهلى ، وتوظف ذلك كله لخدمة الحركة .

٣ ـ والاستفادة من العصبية الجاهلية فى حماية شباب الدعوة أمر شرعى ، فابن العائلة الكبيرة والقبيلة الضخمة الذى يستطيع أن يوظف زعيم هذه العائلة لحمايته لا يعنى أنه قد تخلى عن دينه بذلك . واستفادة بعض الدعاة من ضابط كبير فى الجيش أو المخابرات ، أو وزير متنفذ فى دولة ، لا ينقص من عقيدة هذا الداعية ومن دينه شيئاً ، بل من حق شباب الدعوة فى مرحلة الضعف: البحث عن سند قوى فى الجاهلية يحميهم ، ويحفظ عليهم حرية عقيدتهم ، وحرية الدعوة إليها. ولقد كان لحماية أبى طالب لرسول الله ﷺ وإجارته له ما هيأ له السبل الكافية لنشر الدعوة فى قلب مكة ، دون أن يتعرض لأذىً ماحق يقضى عليه. يقول رسول الله ﷺ : « ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب »(١).

وهذا لا يعنى أن الجاهلية قد وفت بعهدها وذمتها وحفظت جوار أبى طالب خلال هذه السنوات العشر ، ولكن من المؤكد أنها أخفقت فى محاولاتها خرق هذا العهد ، وكان لحماية أبى طالب أثر فعال حال دون وصول الأذى الكبير لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

ولننتقل إلى صورة ثانية من الحماية ، هى صورة إجارة ابن الدغنة لأبى بكر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٨ .

الصديق رضي الله عنه (ففى الصحيح عن عائشة قالت: لم أعقل أبوىَّ إلا وهما يدينان الدين،ولم يمر يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار ، بكرة وعشية، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً إلى أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجنى قومى، فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى. فقال ابن الدغنة : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف ،وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع أبو بكر ، وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة غشية فى أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم،ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة : فأمر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها ، وليقرأ ماشاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن ، فإنا نخشى أن يُفتَن نساؤنا وأبناؤنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر .

فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن، فتتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم ، يعجبون منه وينظرون إليه . وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن. فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، وقد جاوز ذلك ، وابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقرآن فيه ، وإنا قد خشينا أن يُفتن أبناؤنا ونساؤنا ، فانهه . فإن أحب على أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفر ذمتك، ولسنا مقرّين لأبى بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر، فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلىَّ ذمتى، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى خفرت فى رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإنى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله) [1] .

١ـ فأبو بكر رضي الله عنه يخرج بوضوح طالباً الأمان فى عبادة ربه : أخرجنى قومى، فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى .

(١) مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب ص ٨٧ ، ٨٨ ، وراجع البخارى ٢/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ باب هجرة النبى وأصحابه .

ويلقاه ابن الدغنة ، وهو سيد القارة، سيد قبيلة غير قبيلة قريش ، فوجد عاراً عليه أن يُخرج من مكة مثل أبى بكر ، الذى تناهت شهرته خارج حدود مكة أنه يكسب المعدوم، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق . وهى نفس الصفات التى عرفت بها خديجة ﵂ نبوة محمد ﷺ . ولم يكتف ابن الدغنة بالمشاركة الوجدانية ، بل أعاد أبا بكر ودخل به مكة، وأعلن حمايته على الملأ. إنها حماية غريبة أن يحمى سيد قبيلة ابناً لقبيلة أخرى، وفى بيت القبيلة نفسها ، ومع ذلك لم تجد قريش فكاكاً من ذلك، وأذعنت لجوار ابن الدغنة لأبى بكر ، وكانت الحماية على حرية العبادة.

٢ـ غير أن الأمر تطور تطوراً آخر، من حرية العبادة إلى حرية الدعوة ، وهنا ثارت ثائرة قريش وأرسلت وراء ابن الدغنة تستجير به وتعلن استعدادها لخرق الحماية. أما الحدث الجديد الذى فوجئت به ، أن يصلى أبو بكر فى فناء بيته ، فتتقصف عليه النساء ويجتمعن عليه، ويُفتنّ به ـ وكذلك الولدان ـ وعجز ابن الدغنة عن إجراء إجارته على حرية الدعوة ، وعندما خير أبو بكر ﵁ بين حجز حريته عن الدعوة إلى اللّه، وأن يعيش فى ظل ابن الدغنة آمناً قرير العين، وبين أن يدعو ويحمل مسؤولية دعوته، آثر البلاء والدعوة فى سبيل اللّه على الأمان وحرية العبادة .

لقد كانت هذه الإجارة أدنى من إجارة أبى طالب، فهناك إذن الإجارة على حرية الدعوة كما كانت إجارة أبى طالب . اذهب يابن أخى فقل ما أحببت . وبين إجارة ابن الدغنة على حرية العبادة : ارجع واعبد ربك ببلدك .

ولقد وجد هذان النموذجان فى مكة من تحميه قوة الإجارة فى حرية العبادة وهو الأكثر، ومن تحميه قوة الإجارة فى حرية الدعوة وهو نادر، بل نكاد نقول: إنه خاص برسول اللّه ﷺ، وكما رأينا محاولات قريش فى ضرب هذه الإجارة وفشلها فى ذلك . ونخلص من هذا إلى أن الاستفادة من قوانين الجاهلية أمر مشروع إن كان فيه مصلحة للدعوة ، وليس هذا طعناً فى الدين، وليس هذا احتكاماً لغير شريعة اللّه، كما يدور بخلد بعض المتحمسين.

ومما يذكر فى تاريخ الدعوة المعاصرة أن الحكومة المصرية عندما اعتقلت الداعية الإسلامى الكبير محمد قطب عام ٦٦ ، أقام الإمام الشهيد سيد قطب دعوة على الحكومة المصرية التى خرقت القانون فى اعتقاله، ولم يعرف تاريخ

الدعوة الحديثة مثل سيد فى تحرره من فكرة الحاكمية لغير الله . وهو الذى حمل لواءها فى كتبه وفكره وحياته حتى توفاه الله. إن الفقه العظيم لسيد يفرق بين القناعة بنظام حكم كافر يُسعى إليه ، وبين الاستفادة من نظام حكم كافر لحماية الدعوة وشبابها ورجالها .

ومن هذا المنطلق نقول وننبه كذلك إلى أن الديمقراطية ـ وهى نظام غير إسلامى ابتداءً ـ هى خير للحركة الإسلامية من الديكتاتورية الطاغية ، هى مناخ ملائم لتفريخ الدعوة ، وانتشارها ، إنها وهى نظام جاهلى ، أجدى على المسلمين من أى نظام جاهلى آخر ، وهى تضمن عادة حرية التعبير عن الرأى وحرية العقيدة ، أو بتعبير آخر حرية العبادة وحرية الدعوة .

والذى يراجع رصيد الحركة الإسلامية المعاصر يلاحظ أنه ما من فترة أعطيت فيها الحرية للأمة إلا وصار الشارع إسلامياً، والجامعة إسلامية ، ووصل الإسلام إلى السيطرة على كل مرافق الأمة ، وما يكاد الإسلام يصل إلى الحكم عن هذا الطريق إلا ويقوم انقلاب عسكرى يكمم الأفواه ، ويزج بالناس فى المعتقلات والسجون ، وتبدأ حمامات الدم لشباب الإسلام . إن كلمة الرسول ﷺ الخالدة : « إن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد » هى معلم من معالم الحركة الإسلامية ، وخطوة أساسية من خطوات هذا المنهج، تعين الحركة على مواجهة المجتمع القائم، وتفتح لها أبواب الانطلاق الإسلامى العظيم للدعوة فى سبيل الله .

السمة السابعة عشرة

المحاولات السلبية من العدو فى المواجهة

وقد عدد أنواعاً منها العلامة المباركفورى نذكرها نقلاً عنه:

١ـ السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك، قصدوا بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبى ﷺ بتهم هازلة، وشتائم سفيهة .

٢ـ تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات، وبث الدعايات الكاذبة، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم، وحول ذاته وشخصيته، والإكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال فى تدبر دعوته . . .

٣ـ معارضة القرآن بأساطير الأولين ، وتشغيل الناس بها عنه . . . فلقد

ذهب النضر بن الحارث إلى الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم، واسفنديار. فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً للتذكير بالله، والتحذير من نقمته خلفه النضر، يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً منى ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً منى .

٤ـ مساومات حاولوا بها أن يلتقى الإسلام والجاهلية فى منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه، ويترك النبى ﷺ بعض ما هو عليه : ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ﴾ [القلم: ٩] و ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . . .** ﴾[١] [سورة الكافرون] .

وهذه النماذج نذكرها لأنها تتكرر مع الدعوة فى كل جيل، والحركة الإسلامية بحاجة إلى التعرف على هذه المحاولات حتى لا يفت فى عضد الدعاة وهم ينالون أنواع الحرب النفسية من الاستهزاء والتبكيت والسخرية ، يتهمونهم فى عقولهم أنهم رجعيون جامدون ، ومتعصبون متخلفون، وأنهم ينتمون إلى عصر الجمل وعصر الخيام والصحراء، بل يتهمونهم بالتخلف العقلى، فلهؤلاء الدعاة أسوة برسول الله ﷺ الذى اتهمه قومه بالجنون ، وهو سيد ولد آدم: ﴿ **نٓ. وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ** ﴾ [القلم : ١ـ٣]. ويتهمونه بالكذب، وهو الذى لم تعرف البشرية له مثيلاً فى الصدق، وبشهادتهم هم: ما جربنا عليك كذباً. ووسائل الإعلام الجاهلية اليوم تتهم دعاة الإسلام بأنهم متآمرون وبأنهم لا أخلاقيون وبأنهم كاذبون .

والنوع الآخر الذى يتلقاه الدعاة من أعدائهم هو تشويه المبادئ ، وتقديمه بأسوأ صورة للناس، خاصة ووسائل الإعلام اليوم فى كل يوم تقدم سموماً حول هذا الدين ، وفى أحسن الأحوال يقدمون الإسلام على أنه صالح فى مرحلة سابقة من التاريخ، وأنه قدر الأمة العربية فيما مضى أما اليوم فالعصر عصر القوميات، وعصر الاشتراكية العلمية، وعصر التقدمية والديمقراطية، وأن الإسلام قد أدى دوره وانتهى من الوجود. إنها هى نفس الصيغة السابقة التى تتحدث عن القرآن أنه أساطير الأولين .

والمسلمون أحوج ما يكونون إلى الانتباه والحذر إلى هذه الأساليب من الحرب التى تشن عليهم من أعدائهم ليل نهار للنيل من أشخاصهم ، والنيل من دعوتهم،

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى باختصار ص ٩٤ ـ ٩٦ .

والنيل من دينهم وإسلامهم. إن وسائل الإعلام الرهيبة المعاصرة من صحيفة وإذاعة وتلفاز ، من مجلة وكتاب ، ومقالة ومسرحية وقصة ، كلها تنصب اليوم على الحرب على الإسلام ، سواءً بتجسيد الشر وتمجيده أو بالنيل من الخير وطمسه وتشويه معالمه. ياشباب الدعوة، أنتم المستهدفون، ودينكم المستهدف . فبالصبر والوعى تجهضون هذه الحرب .

السمة الثامنة عشرة

المحاولات الإيجابية فى الحرب (عمليات الاغتيال والقتل للقيادة)

لقد تعرض رسول الله ﷺ لأربع محاولات اغتيال وقتل :

كانت الأولى بطلب صريح من قريش من أبى طالب ، يطلبون فيه تسليم النبى ﷺ لهم. كما روى ابن إسحاق: (ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة. فقالوا : يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتىً فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصرته ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم نقتله ، فإنما هو رجل برجل ! فقال: والله لبئس ما تسومونني أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله مالا يكون أبداً . . .)[1] .

وكانت المحاولة الثانية : محاولة فرعون هذه الأمة أبى جهل بن هشام . كما روى ابن إسحاق كذلك : (يا معشر قريش ، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلس له بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته فضخت [2] به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

وفشلت المحاولة فى اليوم الثانى عندما رجع مكفهر الوجه ، وقد يبست يداه على الحجر قائلاً : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١/ ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) فضخت : شججت .

عرض لى دونه فحل من الإبل ،لا والله ما رأيت مثل هامته ، ولا مثل قصرته [1] ولا أنيابه لفحل قط ، فَهَمَّ بى أن يأكلنى)[2] .

وكانت المحاولة الثالثة : محاولة طغاة قريش فى قتله . ففى رواية البخارى عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون بالنبى ﷺ ، قال : بينا النبى ﷺ يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبى معيط ، فوضع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبى ﷺ وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟[3].

وفى حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا ، وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟ فلهوا عنه وأقبلوا على أبى بكر ، فرجع إلينا لا نمس شيئاً من غدائره إلا رجع معنا [4] .

وكانت المحاولة الرابعة : محاولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه والتى انتهت بإسلامه .

وهذه السمة فى غنى عن التعليق ، إذ يجب ألا يغيب أبداً عن أذهان الحركة الإسلامية تخطيط العدو الماكر لإبادة القيادة واغتيالها . وما شهده جيلنا المعاصر من اغتيال وإبادة قادة الحركات الإسلامية يعطينا صورة واضحة عن ذلك. فقد كان اغتيال الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله ـ هدفاً خطط له الكفر فى الأرض ، ثم كانت القافلة الثانية من الشهداء، التى تم إعدامها : عبد القادر عودة ، ومحمد فرغلى ، ويوسف طلعت ، وإبراهيم الطيب ، ثم كانت القافلة الثالثة من الشهداء التى تم إعدامها : سيد قطب ، وعبد الفتاح إسماعيل ، ويوسف هواش . وعمليات التصفيات الجسدية التى تمت على ثرى الشام الطهور لقادة الجهاد فيه : مروان حديد ، وإبراهيم اليوسف ، وعبد الستار الزعيم ، وكل محاولات الاغتيال التى تمت لقادة الحركة الإسلامية ، لتنبئ عن مدى تخطيط العدو لاستئصال هذه الحركة من خلال القضاء على قادتها وزعمائها .

---

(١) القصرة : العنق .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١/ ٢٩٨، ٢٩٩ .

(٣) صحيح البخارى ١/ ٥٤٤ باب ما لقى رسول الله وأصحابه من المشركين بمكة .

(٤) مختصر السيرة ص ٩٩ .

السمة التاسعة عشرة

جهرية المسلمين : إسلام حمزة ، إسلام عمر وإعلان التحدى للمجتمع الجاهلى

وكان التحدى الأول هو إسلام حمزة رضي الله عنه : كما رواه ابن إسحاق عن رجلٍ من أسلم: (أن أبا جهلٍ مر برسول اللّه ﷺ فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول اللّه ﷺ . ومولاة لعبد اللّه بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك . ثم انصرف عنه عائداً إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتىً فى قريش وأشده شكيمةً . فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول اللّه ﷺ إلى بيته قالت : يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفاً من أبى الحكم بن هشام، وجده ها هنا جالساً فآذاه وشتمه وسبه،وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد اللّه به من كرامته ، فخرج يسعى لم يقف لأحد ، معداً لأبى جهلٍ إذا لقيه أن يوقع به. فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فردَّ علىَّ ذلك إن استطعت . فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإنى واللّه قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً [1] .

أما عن إسلام عمر فأخرج أبو نعيم فى الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس قال : قلت لعمر : لأى شىء سميت الفاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام . فخرجت فإذا فلان المخزومى فقلت له : أرغبت عن دين آبائك واتبعت دين محمد ؟ قال : إن فعلت فقد فعله من هو أعظم عليك حقاً منى . قلت : من ذلك ؟ قال: أختك وختنك . فانطلقت فوجدت همهمة ، فدخلت فقلت:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١/ ٢٩١ ، ٢٩٢ .

ما هذا ؟ فما زال الكلام بيننا حتى أخذت برأس أختى فضربته وأدميته. فقامت إلى فأخذت برأسى فقالت : وقد كان ذلك على رغم أنفك . فاستحييت حين رأيت الدماء ، فجلست فقلت: أروني هذا الكتاب . قالت : إنه لا يمسه إلا المطهرون . فقمت فاغتسلت . فأخرجوا لى صحيفة فيها (بسم اللّه الرحمن الرحيم) . فقلت : أسماء طيبة طاهرة ﴿ **طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلاّ تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى** ﴾ إلى قوله: ﴿ **اللهُ لا إله إلاّ هو له الأسماءُ الحسنى** ﴾ [طه: ١ـ ٨] فتعظمت فى صدرى فقلت : ما أحسن هذا الكلام وأجمله. فأسلمت. فقلت : أين رسول اللّه ؟ قالت : فإنه فى دار الأرقم . فأتيته فضربت الباب فاستجمع القوم ،وقال لهم حمزة: ما لكم ؟ قالوا :عمر . قال : وعمر ؟! افتحوا له الباب ، فإنه إن أقبل قبلناه ، وإن أدبر قتلناه . فسمع ذلك رسول اللّه ﷺ. فخرج فتشهد عمر. فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد، قلت: يا رسول اللّه، ألسنا على الحق؟ قال: « بلى ». قلت: ففيم الاختفاء؟ فخرجنا فى صفين : أنا فى أحدهما ، وحمزة فى الآخر حتى دخلنا المسجد . فنظرت قريش إلىّ وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة، فسمانى رسول اللّه ﷺ الفاروق يومئذ [1].

وفى رواية أنس عن أبى يعلى والحاكم والبيهقى قال : خرج عمر متقلداً السيف . فلقيه رجل من بنى زهرة . فقال : أين تعمد يا عمر ؟ قال : أريد أن أقتل محمداً ، قال: وكيف تأمن من بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمداً ؟ قال :ما أراك إلا قد صبوت . قال: أفلا أدلك على العجب ؟ إن أختك وختنك قد صبوا وتركا دينك . فمشى عمر فأتاهما وعندهما خباب، فلما سمع عمر توارى فى البيت . . . حتى انتهى إلى قوله: ﴿ **إنني أنا اللهُ لا إله إلاّ أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري** ﴾ . فقال عمر : دلونى على محمد . فلما سمع خباب قول عمر خرج فقال : أبشر يا عمر ، فإنى أرجو أن تكون دعوة رسول اللّه ليلة الخميس : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام » . فانطلق عمر حتى أتى الدار وعلى بابها حمزة وطلحة وناس ، فقال حمزة : هذا عمر إن يرد اللّه به خيراً يسلم ، وإن يكن غير ذلك كان قتله علينا هيناً [2] .

وروى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال : (لما أسلمت تذكرت أى أهل مكة أشد لرسول اللّه ﷺ عداوة. قلت: أبو جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه

(١ ، ٢) نقلا عن مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب ص ٨٩ ـ ٩١ .

فخرج إلىَّ وقال : مرحباً وأهلاً يا بن أختى ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك أنى قد آمنت باللّه وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به . قال : فضرب الباب فى وجهى ، وقال : قبحك اللّه ، وقبح ما جئت به) [١] .

وذكر ابن الجوزى مختصراً وابن هشام كذلك : أنه لما أسلم أتى إلى جميل ابن معمر الجمحى ـ وكان أنقل قريش لحديثه ـ فأخبره أنه أسلم ، فنادى جميل بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبأ . فقال عمر ـ وهو خلفه ـ: كذب ولكنى قد أسلمت ، فثاروا إليه ، فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، وطلح ـ أى أعيا ـ عمر ، فقعد، وقاموا على رأسه ، وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم فأحلف باللّه أن لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا [٢] . وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله . روى البخارى عن عبد اللّه بن عمر قال : بينما هو ـ أى عمر ـ فى الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمى ـ أبو عمرو ـ وعليه حلة سبرة وقميص مكفوف بحرير ، وهو من بنى سهم وهم حلفاؤنا فى الجاهلية ، فقال له : مالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت ، قال : لا سبيل إليك ـ بعد أن قالها أمنت ـ فخرج العاص . فلقى الناس قد سال بهم الوادى ، فقال : أين تريدون ؟ فقالوا : هذا ابن الخطاب الذى قد صبأ . قال: لا سبيل إليه ، فكرَّ الناس [٣] ، وفى لفظ : واللّه لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه . وكان ابن مسعود يقول : ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر [٤] .

وعن صهيب بن سنان الرومى ﷺ قال : لما أسلم عمر ظهر الإسلام ، ودعى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقا ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتى به [٥] .

وعن عبد اللّه بن مسعود قال : ما زلنا أعزة منذ أن أسلم عمر [٦] .

ونود بعد هذا العرض أن نستخلص النقاط التالية :

كان إسلام حمزة وعمر ﷺ فى ذى الحجة من السنة السادسة للنبوة ، وقد سبق حمزة عمر بثلاثة أيام كما ورد فى إحدى الروايات السابقة ، وذلك فى أشد

(١) السيرة لابن هشام ١/ ١/ ٣٥٠ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ١/ ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
(٣) صحيح البخارى ٢ / ٥/ ٦٠ ، ٦١ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١/ ٣٤٢ .
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٢٦٩ .
(٦) صحيح البخارى ٢/ ٥/ ١٤ .

حالات الأزمة حين كانت قريش تخطط لقتل النبى ﷺ فى أكثر من خطة . ولعل أخطر اصطدام مسلح هو شج حمزة لأبى جهل، وكان كفيلاً أن يشعل حرباً فى قريش. فأبو جهل سيد أهل الوادى ،لا يخلص إليه،وأعز وأكثر هذا الوادى نادياً ـ كما كان يقول عن نفسه. وحمزة كان أشد قريش شكيمة . وتذكر بعض الروايات أنه لما قام بعض رجال بنى مخزوم ، قام بعض رجال بنى هاشم ، وتكهرب الموقف ، وكان من الممكن أن تقع مجزرة قد تنتهى باستئصال المسلمين ، غير أن الرهبة من شخصية حمزة ، حالت دون ذلك ، والمهابة التى له أطفأت الفتنة.

ونلاحظ كذلك أن العصبية الجاهلية المحضة هى التى حركت حمزة لهذا الموقف، فلم تستطع أعصابه أن تتحمل هذا الاعتداء على ابن أخيه محمد رسول اللّه ، وأخيه من الرضاعة . إن القحة التى بلغتها الجاهلية تجاوزت حدودها ، فطف الصاع عند حمزة ، ومضى يشج رأس أبى جهل ولتكن النتائج ما تكون .

والجاهلية العاتية يوم تتصور أن ما تنزل من الضربات فى صفوف المسلمين لإنهائهم ، هى فى الحقيقة تحفر قبرها بيديها ؛ لأن جذوة الحق الخامدة فى النفوس لابد أن تتقد وتتهيج لنصرة هؤلاء الصادقين المستضعفين ، وهذا ما وقع فى حادث إسلام حمزة ، وقدرة الحركة الإسلامية على استغلال الحدث إعلامياً ودعائياً لها أثر خطير فى تحويل المعركة لصالحها ضد الجاهلية .

ومن حوادث الحركة الإسلامية المعاصرة نموذجان كبيران يدلان على تحرك هذا الحق فى النفوس :

النموذج الأول : يوم حالت قوات الحكومة المصرية بين الناس وبين جنازة الإمام الشهيد حسن البنا فى إرهابٍ مجرمٍ عنيف. هذا الإرهاب الذى تجاوز الحد وطغى، حدا بزعيم القبط آنذاك أن يتحدى كل طغيان الحكومة ويخترق الصفوف وينضم لأهل الإمام الشهيد فيشارك معهم فى تشييع الجنازة ، وحفظ التاريخ لمكرم عبيد ـ الزعيم الخصم ـ هذا الصنيع .

النموذج الثانى ـ وهو الحدث الذى لم يكن يقل أثره عن إسلام حمزة فى عهد رسول اللّه ﷺ ـ وهو على أثر استشهاد البنا ـ رحمه اللّه ـ كان الحدث هو: جنون الغرب ، وفرحه الطاغى باستشهاد هذا الرائد العظيم ، حتى ليبيت القوم سكارى عرابيد فرحاً وطرباً فى فنادق أمريكا ، هذا التحدى الطاغى ، والاستفزاز الرهيب لمشاعر الكاتب المصرى ـ سيد قطب ـ كان كفيلاً أن يحول هذا الكاتب

العادى إلى الصف الإسلامى الإخوانى، فيصبح داعية الإسلام العظيم فى القرن العشرين ، وينصر الله تعالى به هذا الدين ، كما نصر هذا الدين لحمزة من قبل ، ويقضيان معاً شهيدين على خطٍ واحد ، سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمامٍ جائر ، أمره فنهاه فقتله .

إن طغيان الكفر وتبجحه ، وتحديه للإسلام ، قد يخرج من صفوف هذا الكفر القوة التى تحمى الإسلام ، وتذود عن عرينه ، بدافع العصبية أو غيرها . والحركة الإسلامية الواعية هى التى ترصد هذه المواقع بيقظة ووعى، وتستغل الحدث أروع استغلال ، وتوظفه لصالحها بدل أن يكون المعول لهدمها ، حتى لو سخر لإظهاره الإعلام الكافر ، فليس المسلمون هم الذين أججوا جذوة حمزة إنما هى المولاة العادية ـ مولاة ابن جدعان ـ وقد أحسنت وصف المشهد . فقذفت بنفس حمزة الهائجة إلى إذلال أبى جهل وتسربله بالدم ، وكان من الممكن لهذه الجذوة أن تنطفئ لولا أن اتصلت بمعين النبوة ، واستمدت من نوره ، فبقيت مشعلاً إسلامياً على مدار التاريخ .

ونلاحظ كذلك حول إسلام عمر رضي الله عنه **أولاً** : تقييم رسول الله ﷺ للأشخاص والرجال . فقد كان دعاؤه ﷺ يوم الخميس كما رواه الترمذى : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام » [1] .

فبالرغم من الحرب العنيفة التى يشنها الرجلان على الإسلام ، لم تكن تخفى على رسول الله ﷺ مقومات الزعامة والقيادة فيهما ، وأن وجود أحدهما فى الصف الإسلامى يعنى قوة هذا الصف واعتزازه ، وإن وراء الكفر المتبجح قلوباً لم تصطدم بعد بتيار الإسلام القوى ، ولم تصل لها القوة الكهربية الضخمة . إنها حين تكون الصدمة قوية قد تغير الكيان كله، وهذا ما وقع فى قدر الله ، ودفع إلى إسلام عظيم الرجال عمر بن الخطاب .

ولا ننسى أبداً ذلك الحوار الذى جرى بين إحدى المسلمات المهاجرات مع زوجها . يقول لها عمر وهو على شركه : إنه الانطلاق يا أم عبد الله . تقول : نعم لقد آذيتمونا وقهرتمونا وأخرجتمونا من بلادنا ،فيقول لها: صحبتكم السلامة . ويأتى زوجها فتقص عليه ما رأت من رقة عمر فيقول لها : أو تطمعين أن يسلم عمر ؟ والله لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب . ولم يكن هذا اليأس القاتل

(١) سنن الترمذى ٥/٦١٧ ح (٣٦٨١) وقال فيه : « حديث حسن صحيح غريب » .

ليسيطر على نفس هذا الصحابى لولا رؤيته الحرب العنيفة الشرسة التى يشنها عمر على الإسلام .

ما أحوج الحركة الإسلامية إلى أن تحسن اصطفاء العظماء ، وتكشف من خلف حجب الظلام المتكاثفة المعدن الثمين النفيس لهم . فتدفع بكل طاقاتها وإمكاناتها لاختراق هذه الحجب حتى تمس أسلاك القلب الخامد الخافت ، فإذا به ينبعث حياً بنور الإسلام ، ينتفض مشرقاً بحلاوة الإيمان وروعته .

ولعل خروج عمر رضي الله عنه ـ متوشحاً سيفه ـ قاصداً قتل رسول الله ﷺ كان ثأراً لخاله ـ أبى جهل بن هشام ـ الذى طعن فى كبريائه من حمزة بن عبد المطلب، بطل بنى هاشم ، فكيف يسكت على الضيم يلحق ببنى مخزوم وحلفائهم بنى عدى من بنى عبد المطلب ؟ ما الذى حطم هذه العصبية الكالحة الخانقة ؟

لقد تحطمت على صلابة العقيدة من هذه المرأة العزلاء ، فاطمة بنت الخطاب أخته ، لقد وجد نفسه صغيراً صغيراً تافهاً أمام الدم المنفجر من جرح أخته العزلاء من كل شيء. وهى تتحدى شخصه ، وتهشم كبرياءه قائلة له : وقد كان ذلك على رغم أنفك . إن قمة العنف والطغيان لدى الطاغية قد تنهزم داخلياً وتتحطم وتنهار أمام ثبات المستضعفين على الحق ، وجلاد وتضحية المجاهدين فى سبيل الله. فلنتيقظ إلى هذا الجانب المهم ، ونعرف كم تربح الدعوة ويربح الدعاة حين يثبتون على الحق ، كما ثبت أصحاب عيسى ابن مريم ، حملوا على الخشب ونشروا بالمناشير ، ما دون لحمهم وعظامهم ، ما صدهم ذلك عن دين الله.

السمة العشرون

دور الشخصيات القيادية فى إعلان التحدى

ونلاحظ ثانياً : ذلك التحدى الشخصى للجاهلية من عمر رضي الله عنه فى ذهابه لخاله أبى جهل وإعلانه إسلامه ، وفى بحثه عن جميل بن معمر الجمحى أنقل قريش للخبر لينقل خبر إسلامه للناس ، وفى مواجهته المشركين وقد سال بهم الوادى يضربهم ويضربونه.

إن هذه الشخصية الفذة لا تعرف الحلول الوسطى ، ولا يناسبها إلا المواجهة والمجابهة، وهذه هى فطرتها . ولكننا نخطئ كثيراً حين نقيس الناس جميعاً بعمر،

إن حادثة إسلام عمر فيها شخصية سعيد ﷺ الذى كتم إسلامه عن قومه وهو من العشرة المبشرين ، وفيها شخصية خباب ﷺ الذى اختبأ عند سماعه صوت عمر ، وهو من السابقين الأولين من المهاجرين . ولم يكن المسلمون يعيبون على خباب وسعيد ، أو يتهمونهما بالجبن .

فالاندفاع الأعمى وراء شخصية معينة فى الإسلام أو حادثة معينة ، يعنى الحكم الأهوج والأعوج على الناس،فليس كل الشخصيات الإسلامية عمر وحمزة،وليست كلها سعيد وخباب، والإسلام يقبل هذه النماذج جميعا ، وكل واحدة منها لها دورها ومسؤوليتها ورسالتها.

إن الشخصية الوحيدة التى تصدت لعمر ﷺ هى شخصية حمزة التى كانت تملك من المؤهلات المكافئة لمواجهة التحدى من عمر. فلا غرو إذن أن يكون لهما الدور الأكبر والحاسم فى إنهاء مرحلة معينة وابتداء مرحلة جديدة .

وهذا ما نلاحظه ثالثا . فعندما عُرض على رسول الله ﷺ إعلان جهرية العبادة والقيام بتظاهرة علنية جماعية فى مكة ، ورأى رسول الله أن الظروف غدت مواتية استجاب لرغبة الفاروق ﷺ،وخرج المسلمون فى صفين على رأس أحدهما عمر،وعلى رأس الثانى حمزة، وأعلنا فى مكة صوت الإسلام الداوى،ودخلا الكعبة بالمسلمين،ومضى المسلمون فى صلاتهم ما بين قائم وراكع وساجد، ولم يكن الأمر عبارة عن حدث عارض ، بل كان خطا جديداً فى تاريخ هذه الدعوة كما ذكر ابن مسعود ﷺ :«ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر » ، وقول صهيب بن سنان ﷺ :« لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقا ،وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتى به ». وقول عبد الله بن مسعود:« ما زلنا أعزة منذ أن أسلم عمر ».

وتشير النصوص ـ كما أسلفنا ـ إلى أن هذه الخطوة الحاسمة أعطت حرية العبادة للمسلمين جميعا ، وعجز المشركون بعدها أن يحولوا دون ذلك . واستطاعت بعض الشخصيات التى كانت محافظة على سريتها فى العبادة والدعوة أن تظهر علانية لا تخاف فى الله لومة لائم، وكان إسلام عمر وحمزة منعطفًا جديداً من منعطفات الدعوة الإسلامية.

إن إسلام حمزة وعمر ﷺ هو بمثابة انقلاب عسكرى فى وقتنا الحاضر ، يهيئ للدعوة الإسلامية مناخًا جديداً للدعوة والعبادة ، وهذه النقطة بحاجة إلى أن

نقف عندها قليلا لنراعى المرحلية فى هذا المنهج الخالد .

إننا نجد ثورة عارمة من الشباب الإسلامى اليوم ، لو أن انقلابا عسكريًا قام وهيأ الحرية المتاحة للدعوة والعبادة ، كمرحلة إلى الهدف النهائى ؛ إقامة دولة الإسلام فى الأرض، والحكم بشريعة الله عز وجل .

لم يستطع الانقلاب الذى قام به حمزة وعمر ﷺ أن يحقق دولة الإسلام فى الأرض. لقد بقيت الأصنام والأوثان، وبقى الخمر والزنا، وبقيت معالم الجاهلية كاملة لم يزل منها معلم واحد ، ومع ذلك اعتبر إسلامهما فتحا إسلاميا ، وعزة عظيمة ؛ لأنه خطا بالدعوة من مرحلة الخوف والاضطهاد والتعذيب إلى مرحلة العلنية والحرية فى العبادة ، بل سمى عمر ﷺ (فاروقًا) من أجل ذلك .

إن الشباب المتحمس اليوم يرى فى هذه الخطوة تخاذلاً وتخليًا عن حاكمية الله فى الأرض ، حيث إنه يقدم الدماء اليوم للوصول إلى هذا الهدف ، بل يتهم قيادة الحركة الإسلامية بالتواطؤ والجهل، والخيانة ؛ لأنها لم تحقق هذا الهدف : إقامة شريعة الله فى الأرض .

وحين تكون الظروف لا تهيئ أكثر من هذه الخطوة على الهدف ، تهيئة الجو الملائم لانتشار الدعوة وانتصارها لتصل إلى الحكم النهائى، يتشنج بعض الشباب ، ويثير الحرب على قيادته ، بل يتهمها فى دينها وعقيدتها.

ما أحوجنا إلى أن نتأدب بأدب رسول الله ﷺ ، وأدب سيرته ، ونلحظ هذه المرحلية المتتالية للوصول إلى الهدف النهائى ، والهدف النهائى مرتبط بالقوة والقدرة على تحقيقه ، وليس جهلاً أو غباءً أو انحرافًا عن دين الله عز وجل .

فقد تكون الحركة الإسلامية غير قادرة على إنهاء الجاهلية كلها من جذورها ، بل تقتضى الظروف السياسية والاجتماعية والدولية أن يكون الوصول للحكم من خلال مؤسسات دستورية عن طريق الحرية والانتخابات ، ولا تملك القوة العسكرية للمسلمين أكثر من حماية هذه الحرية .

لم يقم المسلمون بعد إسلام عمر ﷺ بتكسير الأصنام والأوثان ، ولم يقوموا بإحراق حانات الخمر، ولم يقوموا بتدمير مواخير الزنا، لم يقوموا بشىء من ذلك. إنما قاموا بالدخول إلى الكعبة والصلاة فيها ، وحق التجمع حولها ، ودعوة الناس للإسلام، وكان هذا نصرًا عظيمًا للإسلام ، وخطوة على الطريق للهدف النهائى .

ما أحوج شبابنا أن يفقهوا هذه المعانى ، وأن يتعلموا من سيرة الرسول ﷺ الخطوات العملية والأهداف المرحلية للوصول منها إلى الهدف العظيم ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . غير أننا نلاحظ كذلك أن المسلمين لم يشتركوا فى حكم مكة مع المشركين لأن الحكم مسؤولية .

ولم يقبلوا الحلول الوسطى التى عرضت عليهم . لقد قاد هذا الانقلاب الأمور إلى زيادة فى التميز ، وزيادة فى المفاصلة ، وصار المسلمون قادرين على إعلان عباداتهم ، وإعلان حقيقة مبادئهم للناس جميعا ، بينما لم يكن لهم هذا الحق من قبل ، وهذا يعنى أن بعض الشباب المسلم لم يكن قادرًا قبل إسلام عمر رضي الله عنه على إعلان هويته الإسلامية، ومبادئه الإسلامية ، واعتناقه الإسلام ، وظفر بهذا الحق بعد ذلك .

إنه ما لم يعلن أن الحركة الإسلامية أو الجبهة الإسلامية،هى التى تحكم الأمة،فلا ضير من أى مظهر سياسى يحقق مكاسب أكبر وأضخم لهذه الحركة أو هذه الجبهة،إنها لم تصل بعد إلى الحكم،وبالتالى لا تحمل مسؤولية أى خطأ فيه.

وفرق بين أن يعلن قادة انقلاب عسكرى إسلامية الدولة ، فهم مسؤولون عن هذا الإعلان،والمسؤولية على صدق هؤلاء فى ادعائهم أو كذبه ودعوتهم لفريق من الناس أو لكثير منهم فى ذلك ، وبين أن يُعلَنَ أن الحركة الإسلامية هى صاحبة الحكم والمسؤولية عنه، وبالتالى فسوف تحاسب على كل خطوة فيه وتحاسب عن سعيها الحثيث لجعله محل التطبيق الفعلى .

السمة الحادية والعشرون

ملاحقة العدو لتجمعات المسلمين وإحباط المسلمين لهذه الملاحقة

وظهر هذا جليا فى الوفد الذى أرسلته قريش للحبشة لملاحقة المسلمين هناك. وتقص علينا أم سلمة رضي الله عنها قصة هذه الملاحقة ، حيث نقتطف منها بعض الفقرات:(لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار ، النجاشى ، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى، ولا نسمع شيئًا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدمًا

كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص . . . ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له : أيها الملك ، إنه قد صوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم ، لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . قالت : ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله ابن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى. فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم . فغضب النجاشى ثم قال: لاها الله إذن لا أسلمهم إليهم ولا يُكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليها ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاورونى . قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنا فى ذلك ما هو كائن ، فلما جاؤوا ، وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحدٍ من هذه الملل ؟ فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال له :

أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ قالت : فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى

عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟

فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشى : فاقرأه على ، فقرأ عليه صدرًا من ﴿كهيعص﴾ [مريم : ١] ، فبكى والله النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ! ثم قال لهم النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ! انطلقا . فوالله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون .

قالت : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم ! فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ : لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد ! ثم غدا عليه من الغد فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

فأرسل إليهم ليسألهم عنه . قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط . فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائناً فى ذلك ما هو كائن !

فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم ؟ فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ﷺ ، يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود .

فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم [1] بأرضى ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دَبْراً [2] من ذهب وإنى آذيت رجلاً منكم ! ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها .

---

(١) شيوم : آمنون .

(٢) دَبْراً : جبلا .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين ، مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جار .

قالت : فو الله إنا لعلى ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه فى ملكه ، فوالله ما علمنا حزنا قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك ، تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه ، وسار إليه النجاشى وبينهما عرض النيل ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم، ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزبير بن العوام : أنا . قالوا : فأنت . وكان من أحدث القوم سنا ، فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . قالت : فدعونا الله للنجاشى بالظهور على عدوه ، والتمكين له فى بلاده، فو الله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع الزبير وهو يسعى ، فلمع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظفر النجاشى ، وأهلك الله عدوه ، ومكّن له فى بلاده ، واستوسق عليه أمر الحبشة ، وكنا عنده فى خير منزل ، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة) (١) .

إنها وثيقة قدمتها لنا أم سلمة من أنفس الوثائق فى فن مخاطبة الملوك ، والحوار معهم ودحض شبه الأعداء وكشف مخططاتهم ، وسنعالج من خلال هذه الوثيقة سمات عدة إضافة إلى السمة الأساسية فيها ألا وهى : ملاحقة تجمعات المسلمين من العدو ، وإحباط هذه المخططات من المسلمين .

ولعل المشركين عندما ووجهوا بالنكسة الخطيرة التى حلت بهم من جراء إسلام عمر وحمزة رضي الله عنهما فكروا فى ضرب هذا التجمع الإسلامى الضخم فى الحبشة ، وانطلاقاً من معلومات السيرة النبوية يلاحظ أن التجمع الإسلامى فى الحبشة عند إسلام عمر رضي الله عنه كان ضعف التجمع الإسلامى فى مكة ، فتذكر الروايات أن عدد المسلمين فى مكة يوم أسلم عمر رضي الله عنه لم يكن يتجاوز الأربعين، بينما كان عددهم فى الحبشة ـ كما تذكر الروايات ـ ثلاثة وثمانين رجلاً وتسع عشرة امرأة . فمن الطبيعى إذن أن تخطط قيادة مكة للإطاحة بهذا التجمع الخطير فى الحبشة ، صحيح أنه بعيد عنها ، ولكن نموه يشكل خطراً على مكة فى أى وقت تعود فيه هذه الجالية إلى مكة وتمارس نشاطها ودعوتها ، خاصة إذا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٨ .

استطاعت هذه الجالية الكبيرة أن تدخل الأحباش فى الإسلام ، أو تقنع النجاشى بمهاجمة قريش . ولا تزال ذكرى عام الفيل وغزو الأحباش للكعبة عالقة فى أذهانهم ، ومن أجل هذا أحكمت الخطة من كل جانب لاسترجاع المسلمين من هناك ، وكان وجود ثلاثة عناصر أساسية كافية لنجاح الخطة :

الأول : هو الكميات الضخمة من الجلود التى حملها الوفد هدايا معه لكل جهاز الحكم فى الحبشة .

الثانى : اختيار الوفد على أرفع المستويات فى مكة من حيث الحكمة والحنكة والدهاء والذكاء .

الثالث: الصداقة الوثيقة بين عمرو بن العاص أحد أعضاء الوفد ، والنجاشى ملك الحبشة.

وحين يراجع المرء الخطة التى شارك ذكاء عمرو بن العاص فى وضعها لا يشك لحظة فى نجاحها ، ويكفى أن نعلم أن عمرو هو الذى كان داهية المسلمين فيما بعد،وهو الذى أطلق عليه الفاروق عمر رضي الله عنه « أرطبون العرب » فى مواجهة داهية الروم الأرطبون . وأهم عنصر فى هذه الخطة هو تسليم الهدايا لجهاز الحكم الحبشى كله قبل تسليمها للنجاشى نفسه، والهدف المقصود من ذلك هو ما ذكر فى النص نفسه :« فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم » .

إننا ونحن نتحدث عن هذه المطاردة ، يمثل فى ذهننا محاولات الطغاة الحاقدين فى مطاردة المجاهدين المسلمين فى كل مكان ، ونذكر الخطط الجهنمية الرهيبة التى تدرس على المستوى المحلى والعالمى للضغط على الحكومات المضيفة للمجاهدين المسلمين كى تسلمهم إلى الطواغيت . وكم من المرات جاءت الوفود إثر الوفود كى تستأصل الوجود الإسلامى من هذه الأقطار،وباءت بالفشل الذريع بعد ذلك ونفذت الخطة تماماً كما أعدت،وقام البطارقة بدورهم على خير وجه كلفوا به من قريش وكان حديث الوفد القرشى فى أعلى مستويات الذكاء. فقد جعلوا المسلمين على دين مرفوض من الفريقين، وبمعنى آخر هو خطر على الفريقين، كما حاولوا أن يستفزوا مشاعر النجاشى فى عدم دخول المسلمين فى دينه، وأظهروا حرصهم الشديد على مصلحة الحبشة والنجاشى . وآخر معنىً من المعانى التى ركز عليها الوفد القرشى هو أن قومهم وأشرافهم أعلم بهم ، وهو معنىً هام حرصوا عليه ،

وذلك حتى لا يجشموا النجاشى عناء السماع لهم؛ لعلمهم باحتمال فشل خطتهم لو استمع إلى المسلمين.

الشيء الوحيد الذى حال دون تنفيذ الخطة وأفسدها على المشركين هو عظمة النجاشى ، وأصالة عنصره ، وطيب محتده يوم رفض ـ رغم قرار مستشاريه من البطارقة ـ الحكم والتسليم قبل أن يسمع من المسلمين .

ما أحوجنا ونحن نعمل فى الحركة الإسلامية أن نعرف أقدار الرجال وموازينهم . إن بعض الكفار قد يقيضهم اللّه تعالى ليكونوا حماة للإسلام ، وبعضهم قد يكونون على الحياد ، وبعضهم يعملون لاستئصال شأفة الإسلام ، فهل يجوز للمسلمين أن يعاملوهم جميعاً على مستوىً واحد ؟

إنهم لو فعلوا ذلك لكانوا إما أغبياء جهلاء ، أو غادرين لؤماء ، وكلا هذين الموقفين يبرأ منهما العنصر الإسلامى الأصيل . وهذا ما سنراه من خلال الحديث عن الجوانب الأخرى فى هذه الوثيقة .

السمة الثانية والعشرون
عبقرية الوفد الإسلامى فى حوار الملوك

لقد كانت هذه الجالية الإسلامية من الكفاءة والعبقرية ما جعلها تحطم كل أحابيل الأعداء ، وفيهم عمرو بن العاص داهية العرب قاطبة .

لقد كان الصف الإسلامى فى الحبشة يمتاز أول ما يمتاز بالحب والمودة والثقة بين أفراده.

وكانت الميزة الثانية فيه لجوءه إلى الشورى ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض . . . فلا يقطع أحد منهم برأى ولا ينفرد فيه عن أخيه .

وكانت الميزة الثالثة فيه تقديرهم للكفاءات والطاقات ، فاختاروا رجلاً منهم ليكون الناطق الرسمى بهم حيث ووجه جعفر رضي الله عنه بالسؤال الأول عن هذا الدين .

لقد استطاع جعفر رضي الله عنه أن يقدم الإسلام بصورة فريدة قلما نجد لها نظيراً فى التاريخ. وذلك على أربعة خطوط عامة :

الخط الأول:وقد عرض فيه كل مساوئ الجاهلية وعوراتها وقذرها، بحيث أصبح هذا الدين الذى يدين به وفد قريش تتقزز منه كل نفس بشرية ، وكانت هذه هى الجولة الأولى التى هدم بها الركن الركين الذى يفىء إليه عمرو بن العاص وصاحبه.

ثم انتقل إلى **الخط الثانى** فعرض فيه فى كلمات جامعة مانعة قواعد الإسلام العامة وأسسه التى تستهوى كل حصيف عاقل بله ملك حكيم مجرب محنك .

لقد كانت الفرصة مواتية لجعفر كى ينقلب داعية إلى هذا الدين ، بعد أن كان الهدف سياسياً بحتاً هو المحافظة على الوجود الإسلامى فى الحبشة ، وبذلك كسب الجولة الثانية فى تقريب نفس النجاشى إلى الإسلام .

ثم انتقل إلى **الخط الثالث** فعرض فيه الظلم الماحق الذى نزل بالمسلمين نتيجة تمسكهم بهذا الدين وأبرز وضع المسلمين فى صورة قديسين وحواريين تنزل بهم ضربات المجرمين الوثنيين ، وهذه الصورة ذات أثر ساحر فى نفوس النصارى الذين يعيشون مفهوم التضحية والفداء، بل حوروا دينهم إلى صور من المثالية والرهبانية التى ابتدعوها ابتغاء رضوان اللّه ، ما كتبها اللّه عليهم ، وما رعوها حق رعايتها . وبذلك كسب الجولة الثالثة فى كسب قلب النجاشى بعد أن كسب عقله .

ويكاد الذى يسمع هذا الكلام يرى أن فوجاً جديداً من الحواريين قد حشر بين يدى ملك الأحباش ، كما أظهر فى الوقت نفسه قريشاً فى هيئة الطاغية المتجبرة حتى لينفر الملك فى قلبه منهم بعد أن نفر منهم فى عقله .

ثم انتقل إلى **الخط الرابع** فى الثناء الحصيف المتزن على الملك ، الذى لا يحمل المبالغة الكاذبة ولا التجاهل المهين ، بل وضعه فى صورة الأمل والملاذ لهؤلاء المستضعفين . وبذلك كسب الجولة الرابعة ، وجعل آخر حديثه يدور حول المحور النفسى وإثارة الشهامة والرجولة فى نفس الملك .

كان من الطبيعى بعد هذه العبقرية فى العرض ، والفذاذة فى الأسلوب ، أن ينهزم عمرو بن العاص وصاحبه هزيمة منكرة .

إن كل النقاط التى أثيرت عن الإسلام هى نقاط التقاء بين النصرانية والإسلام، بينما أغفلت لحد مّا نقاط الخلاف . والدبلوماسى والسياسى المسلم هو أحوج ما يكون ليفقه هذه الدروس فى المفاوضات ، وهى خطوط عامة فى أى لقاء أو حوار مع أية جهة أو قيادة سياسية على مستوى القمة :

١ ـ تفنيد عيوب الجاهلية التى تعادى نظام الجهة المفاوضة ، أو لا تتبنى وجهة نظرها على الأقل .

٢ ـ عرض المبادئ والأسس العامة للإسلام التى يقوم عليها البناء بعد هدم المفاهيم الجاهلية السابقة .

٣ ـ عرض جوانب الظلم والاضطهاد التى يعانيها حملة المبادئ من الطواغيت والظالمين .

٤ ـ عرض الأمل الكبير المنوط بالجهة المفاوضة فى رفع هذا الظلم والحيف فى ثناء حصيف متزن .

٥ ـ إغفال نقاط الخلاف والإثارة التى يمكن أن تفسد الجو بين السياسى المسلم ، والجهة المفاوضة ، ثم كان ختام المفاوضات فى تلاوة صدر سورة مريم بطلب من النجاشى أن يستمع إلى شىء مما جاء به رسول الله ﷺ . ولا شىء أحب على قلب النجاشى من أن يسمع صدر سورة مريم العذراء الطاهرة البتول ، وأصدر حكمه النهائى بعد هذا كله: « إن هذا والذى جاء به عيسى من مشكاة واحدة » .

إن وفداً يستطيع أن يبكى ملكاً أو رئيساً ويبكى معه كل أعضاء وفده عن صدق وقناعة هو أعلى وفد ينجح فى مهمته، بعد أن كانت البداية هى تعرضه للطرد والإبعاد من بلد هذا الملك. وكم كان هذا الوفد على مستوىً من الكفاءة والعبقرية، أن يكسب عقائدياً بعد أن كسب سياسياً ، ويضم الملك إلى الإسلام ! .

السمة الثالثة والعشرون
لا مساومة على العقيدة

لقد هُزِم عمرو فى الجولة الأولى شر هزيمة ، ولكنه عمرو ، فأين دهاؤه وهو الذى حفظ عنه التاريخ فى كلمته التاريخية فيما بعد فى تحديد مستويات الدهاة المسلمين : معاوية للمعضلة ، وعمرو للبديهة ، والمغيرة لكل صغيرة وكبيرة . ولقد قدمت الفكرة عنده منذ الوهلة الأولى ، وبينها لإلحاق شر هزيمة منكرة بالمسلمين عبر عنها بقوله لصاحبه : والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم .

حتى لنستمع إلى مشاعر أم المؤمنين رضي الله عنها من الغيظ على عمرو ، وحفظ الجميل لصاحبه ابن أبى ربيعة : وكان أتقى الرجلين فينا .

إن نقطة الخلاف التى تحاشاها المسلمون بذكائهم ونباهتهم هى التى أثارها عمرو عليهم حرباً ضروساً لها أوار . لقد بيتها لهم إلى اليوم الثانى حيث قابل النجاشى بقوله : إنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيماً.

إن عمرو قد خطط أن يفتك بهم بنفس السلاح الذى هزموه فيه، بالحديث عن مريم وعيسى ابن مريم ، وكانت المحنة الجديدة أمام المسلمين ، حيث لا مفر لهم من قول الحقيقة التى تحاشوا ذكرها من قبل . لم تعد تجدى العبقرية هنا لأننا أمام أصحاب مبادئ لا تجار سياسة؛ لأننا أمام دعاة إلى الله ، وليس مع دجالين نهازين للفرص حتى يصلوا إلى الحكم ، وهنا تقف حدود السياسى على عتبة الداعية ، وهذا ما قرره الدعاة المسلمون بعد كل المكاسب التى حققوها . إنهم أمام واقع قد يفقدهم كل هذه المكاسب، والتى منها إسلام النجاشى، والتى منها حرية الدعوة . بل قد يؤدى إلى التنكيل بهم والقضاء عليهم ، وتسليمهم إلى عدوهم .

كيف يتصرف السياسى المسلم أمام هذه الموازنات؟ أمام هذه الخيارات الصعبة؟ أن يجد كل ما بناه منهاراً فى لحظة واحدة ، أو يجد الدولة التى يريدها على وشك أن تقوم. ثم يطلب منه أن يضحى بهذا كله من أجل حقيقة عقيدية واحدة. أبداً إما السياسى ، وإما المسلم . فلا خيار عندها له إلا الإسلام . انتهى دور العبقرية ولم يكن من بد إلا إعلان العقيدة ولو كانت تغيظ الكثيرين أو تقضى على كل ما حققه المسلمون من مكاسب . قالوا وبلا خلاف : هو عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . لقد حصرهم دهاء عمرو فى عبودية عيسى ، فلا مناص لهم من أن يقولوا الحقيقة . ولكن شرف الكلمة ، وعظمة التمسك بالمبدأ يكون لها من السحر الحلال أحياناً ما يفوق كل دهاقنة السياسة وعباقرة الدبلوماسية ، وهذا الذى كان : (والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود) ولئن فشل عمرو فى تغيير قلب النجاشى ، فلم يفشل فى تغيير قلب بطارقته . ونخروا أمام هذه التصريحات ، غير أن النجاشى زاد إصراراً على موقفه: (وإن نخرتم والله). اذهبوا فأنتم شيوم ـ آمنون ـ بأرضى ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ! ما أحب أن لى دَبْراً ـ جبلاً ـ من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم) وانتهى الأمر بتوتر العلاقات بين النجاشى وصاحبه عمرو حتى

ليأمر بإعادة الهدايا كلها إليهم . وإنها لتعنى فى مفهومنا المعاصر على أقل تقدير ، قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين مكة والحبشة، وإغلاق السفارات ، والاعتراف الرسمى بالوجود الإسلامى فى الحبشة .

السمة الرابعة والعشرون
إثارة الحرب فى صف حلفاء المسلمين
وفشل هذه المكيدة بالحزم والسرية

لم يغادر عمرو الحبشة ـ رغم هزيمته النكراء ـ إلا وقد وضع بذور الحرب الأهلية فى صفوف الحبشة حيث انقسمت الحبشة إلى فريقين : فريق مؤيد لرسول الله ﷺ والوجود الإسلامى وعلى رأسه النجاشى . وفريق معارض للوجود الإسلامى فى الحبشة وعلى رأسه مغامر جديد أو قائد انقلاب ، ومن خلفه البطارقة الذين دفنوا غيظهم مؤقتاً على المسلمين . ثم ساندوا هذا المغامر ، وألبوا الجو ضد النجاشى حتى قامت الثورة عليه .

وهنا تطالعنا معانٍ عديدة يجدر الوقوف عندها ، ونحن ننهل من معين هذا المنهج : تطالعنا مشاعر المسلمين ـ كما تقول أم سلمة رضي الله عنها : فو الله ما علمنا حَزِنّا حُزْناً قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك . ثم كيف عاشوا على أعصابهم مراحل الحرب كاملة يرصدونها بيقظة وحذر . ويحمل الفتى الزبير ـ الذى لا يلفت الأنظار لصغر سنه ـ مسؤولية مراقبة الحرب والمعركة حيث يغامر سابحاً إلى الطرف الآخر من النهر ، وحين يتم النصر لا يتمالك أن يلوّح بثوبه من بعيد فرحاً بظفر هذا النجاشى على عدوٍ يريد إبادتهم من الوجود .

والمعنى الثانى والثالث نطالعهما من تتمة قصة النجاشى : (وحدثنى جعفر بن محمد عن أبيه قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشى : إنك فارقت ديننا وخرجوا عليه . فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفناً وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم . فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا ، ثم عمد إلى كتاب فكتب يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم . ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة وصفوا له فقال : يا معشر الحبشة ، ألست أحق الناس بكم ؟ قالوا: بلى . قال :

وكيف رأيتم سيرتى فيكم ؟ قالوا : خير سيرة . قال: فما بالكم ؟ قالوا : فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد . قال : فما تقولون أنتم فى عيسى ؟ قالوا : نقول : هو ابن اللّه . فقال النجاشى ـ ووضع يده على صدره على قبائه ـ : هو يشهد أن عيسى ابن مريم لم يزد على هذا شيئاً ، وإنما يعنى ما كتب ، فرضوا وانصرفوا ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فلما مات النجاشى صلى عليه واستغفر له . . .)[1] .

فلقد كان من الممكن أن يفقد المسلمون أكبر مركز استراتيجى لهم بعزل النجاشى أو قتله، وكان النجاشى يدرك هذا المعنى، فأقدم بحصافته فى بداية الأمر على تهيئة السفن للمسلمين لأنهم هم المقصودون فى الأصل، فلو انتصر خصومه فلن تطال يدهم المسلمين، وإن ظفر هو فالأمن والأمان للمسلمين، وكان التصرف الثانى درساً للمسلمين، فالنجاشى لم يعلن إسلامه بعد ، ومن الممكن أن تبقى شخصيته سرية غير معروفة بإسلامها ليؤمن الحماية للمسلمين ، ونحن بحاجة إلى أن نقارن بين الموقفين ، إن جعفر لم يقف هذا الموقف ،ووقفه النجاشى، لماذا أبيح للنجاشى ذلك ، ولم يبح لجعفر ، رغم أن كلا الشخصين مسلمان؟

أما جعفر فهو الذى يمثل الإسلام والمسلمين ، ومن خلاله يعرف الإسلام وتعرف عقائده. فلا مجال للغمغمة والتخفية ؛ لأن هذا يعنى طمس عقيدة الإسلام فى نفوس الناس.

أما النجاشى فلا يعرف الإسلام بشخصه ، ولا يعرف من خلاله ، بل هو فرد عادى، الأصل أنه نصرانى لامسلم . فاقتضت المصلحة السياسية أن يبقى محافظاً على سريته ، ولجأ فى اللحظة الحاسمة إلى التورية والإخفاء ، وبقى فى ذهن شعبه نصرانياً فأخمدت الثورة عليه . هذا الموقف هو الذى يمكن أن نسميه بالتغطية السياسية. فلو أن ضباطاً فى جيش يحملون فى السر انتماء إسلامياً لحركة مجاهدة، فليس بالضرورة أن يكشف عن هويتهم ، ويعلن إسلامهم طالما أن فى إخفاء شخصيتهم مصلحة للإسلام والمسلمين .

إن شخصية النجاشى ، وشخصية العباس ، وشخصية نعيم بن مسعود ، هى نماذج إسلامية محتذاة للحركة الإسلامية ومن خلال أدوارها التى تؤيدها ، يمكن تحقيق حماية أو نصر أو تمكين للمسلمين فى الأرض دون حرج تحمله الحركة الإسلامية أو تحمل أوزاره .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١/ ٣٤١ .

السمة الخامسة والعشرون

المفاوضات المباشرة بين رسول اللّه ﷺ وقريش (الحلول السلمية)

وقد أخذت طابعاً فردياً ، وطابعاً جماعياً :

أما الطابع الفردى :فقد تم على يد زعيمين يمثلان قوة قريش المتكافئة. الأول : الوليد بن المغيرة زعيم بنى مخزوم وحلفائها . وأما الثانى : فعتبة بن ربيعة زعيم بنى أمية وحلفائها . ولندع الطابع الفردى لنقف مع الخطوط العامة للمفاوضات التى تمت بين قيادة قريش ، وبين رسول اللّه ﷺ :

(ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة وهم عتبة بن ربيعة،وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبو البخترى بن هشام ، والأسود ابن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد اللّه بن أبى أمية ، والعاصى بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف ومن اجتمع إليهم ، قال : اجتمعوا عند غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد نكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم ، فجاءهم رسول اللّه ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم فيما كلموه بداءً . وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم ، فقالوا :

يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا واللّه لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد سببت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى من قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ـ أو كما قالوا له ـ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، فإن كنت تطلب به الشرف فينا فنحن نسوِّدك علينا ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك ، وإن كان الذى يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً ـ فربما كان ذلك بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول اللّه ﷺ :« ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن اللّه بعثنى إليكم رسولاً ،

وأنزل علىَّ كتاباً، وأمرنى أن أكون بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر اللّه حتى يحكم بينى وبينكم » أو كما قال .

قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشاً منا ، فاسأل ربك الذى بعثك بما بعثك به ،فليسيِّر عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا قصى بن كلاب فإنه كان شيخ صدق فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من اللّه ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول . فقال لهم رسول اللّه ﷺ : « ما بهذا بعثت إليكم ، وإنما جئتكم من اللّه بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على فأصبر لأمر اللّه حتى يحكم اللّه بينى وبينكم » .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا فخذ لنفسك : سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم فى الأسواق تلتمس المعاش كما نلتمس حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول اللّه ﷺ : « ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربه ، ولكن اللّه بعثنى بشيراً ونذيراً » أو كما قال: « فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر اللّه حتى يحكم اللّه بينى وبينكم » .

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل .

قال : فقال رسول اللّه ﷺ : « ذلك إلى اللّه إن شاء أن يفعله بكم فعل » .

قالوا :يا محمد ،أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك بما تراجعنا به ويخبرك بما هو صانع فى ذلك بنا ، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به ! إنه قد بلغنا إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له : الرحمن ، وإنا واللّه لا نؤمن بالرحمن أبداً . فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا واللّه لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهى بنات اللّه .

وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا باللّه والملائكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول اللّه ﷺ قام عنهم وقام معه عبد اللّه بن أبى أمية بن المغيرة ـ وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك عند اللّه كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما تخوفهم من العذاب فلم تفعل ـ آو كما قال له ـ فواللّه لا أومن بك أبداً حتى تتخذ سلماً إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها،ثم تأتى معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وايم اللّه لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك . ثم انصرف عن رسول اللّه ، وانصرف رسول اللّه ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان طمع به من قومه حين دعوه)[1].

لعل هذا النص هو من أجمع النصوص التى طرحت القضايا الكبرى التى تم التفاوض عليها بين قيادة مكة وبين رسول اللّه ﷺ.خاصة وأن الذين اشتركوا فى المفاوضات يمثلون كل زعامة مكة وقياداتها بلا استثناء. فالمطالب تمثل إجماعاً من هذه القيادة،وتمثل وجهة نظرهم، وإن المرء ليأسى أن يجد هذا التفكير وقد انعقد عليه إجماعهم . وإن تلخيص عبد اللّه بن أبى أمية لهذه القضايا هو الذى نعتمده للمناقشة :

أولاً : الأمور العامة : المال والسيادة والملك.

ولم يلجأ إليها القرشيون إلا بعد أن سدت عليهم المنافذ بإسلام عمر وحمزة ﷺ ووجدوا خطر المسلمين قد استفحل ، وأصبح المسلمون يدعون للّه جهاراً ، ويعبدون اللّه جهاراً . فعقد هذا المؤتمر الاستثنائى ـ إن صح التعبير ـ لإنهاء المشكلة مع محمد رسول اللّه ﷺ ، وأرسلوا وراءه ليحضر .

إن العدو عندما يشتد عليه الضغط والإكراه يلجأ إلى العروض المغرية، أما فى الأحوال العادية فلا يعبأ بالدعاة والدعوة ، بل يستعمل أسلوب الاستهزاء والسخرية والإيذاء ، ولقد فشلت هذه المحاولات جميعاً ، وتقدم المد الإسلامى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٨ .

بدخول شخصيتين عظيمتين من قريش فى صف محمد رسول اللّه ﷺ ، وأمام تعاظم هذا المد بدأت قريش أساليب الإغراء مع رسول اللّه عليه الصلاة والسلام .

وهذه هى عقلية الجاهلية التى لا تعرف قيماً فى هذه الأرض إلا هذه القيم ؛ لأنها فى الأصل لا تسعى إلا لذلك ، وتحسب أن الدعاة إلى اللّه مثلها قيماً ومبادئ . إن ملة الكفر ورجالاتها ، ولو طرحوا ألف مبدأ فهو ستار فى الحقيقة للوصول إلى المال والملك والسلطان والسيادة ، وفى جواب رسول اللّه ﷺ لقادة الكفر درس خالد إلى الأبد يحتذيه الدعاة إلى اللّه ، ويتخذونه موقفاً ثابتاً لأنه دين عندهم ، وليس فلتة عابرة :

« ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم » فليست هذه الأمور إذن محل نظر أو دراسة من الحركة الإسلامية ، لقد بت فيها رسول اللّه ﷺ . إن أى حكم تحت راية كافرة يشترك فيه المسلم من أجل المنصب فقط هو أمر مرفوض . إن البحث فى هذه الأمور يتم بعد الاعتراف بالإسلام شرعاً وحكماً . أما قبل ذلك فلا ، ومن أجل هذا رفض رسول اللّه ﷺ منهم ذلك قبل الاعتراف برسالته وبالكتاب المنزل عليه وتطبيق مبادئه ، والاحتكام إليه .

ثانياً : الأمور التى سألوها لمعرفة سنزلته عند اللّه عز وجل : هى تسيير الجبال عن مكة وتفجير الأنهار فيها ، ثم إحياء الموتى من زعمائهم ، ثم مساءلتهم عن رسول اللّه ليشهدوا له بذلك ، أو أن يكون له قصور وجنان ، وأن يسقط السماء عليهم كسفاً . وإن كان هذا الأمر لايتكرر بهذه الصيغة اليوم ـ لأنه لا يدعى أحد أنه رسول بعد رسول اللّه ﷺ ـ لكنه يعرض من حيث فحواه ومعناه فى صيغة أخرى .

إن قيادات الكفر تطالب الحركة الإسلامية بأمور تعجيزية هى لا تملكها بالأصل، وتربط إيمانها وانصياعها لها بهذه الأمور . فالماديون ذوو الحس الغليظ يتسترون وراء هذه الأمور لتبرير كفرهم ، وما تطرحه المبادئ المادية اليوم ـ شيوعية كانت أو علمانية ـ هى الأفكار السابقة ، فتضفى عليها ثوباً فلسفياً أو ثوباً علمياً لتبرر موقفها الكافر .

إنهم يرفضون فكرة الإيمان باليوم الآخر؛لأنهم لا يشهدون حياة بعد الموت ، ويرفضون فكرة الإيمان باللّه ؛ لأنهم لا يرونه، ويرفضون فكرة الإسلام كله ؛ لأنه غيبى لا يخضع للتجربة ،ويرفضون فكرة الدين كله ؛ لأنه مخدر للشعوب .

بل يدرسون تاريخ العالم كله ، على أن الدين مرتبط بالظلم البشرى ، ولن يحررهم فى واقعهم اليوم ، ولن يحقق لهم سعادتهم ؛ لأنه يحرم شهواتهم بلا مقابل . هذه المفاهيم العقائدية التى يطرحها الفكر المادى العلمانى فى وجه الدعاة إلى اللّه،يجب ألا تفت فى عضدهم ،ولا تثنى عزائمهم عن الصبر على المناظرة ، والاستمرار فى الحوار ، والتركيز على أن القضية أصلاً هى قضية إيمان وكفر ، وإنها محور الافتراق بين الفريقين .

كما تدلنا هذه المناقشات من طرف آخر على أن القضية عندما تحدد بهذه الصيغة ، لن يعدم العدو الافتئات على الحق ، ولن يعدم توزيع التهم وتشويه الدعاة بأنهم يتلقون أفكارهم من أعدائهم (ولقد علمنا أن الذى يعلمك هذا رجل باليمامة اسمه الرحمن ، واللّه لا نؤمن بالرحمن أبداً) وهم يعلمون مدى كذبهم فى هذا الادعاء ، ويرون محمداً ﷺ بين يديهم ليل نهار ، ويعرفون مدخله ومخرجه وصلاته ، وأعداء اللّه إذن حين يتهمون الدعاة بالعمالة أو التبعية الفكرية لغيرهم هم أعلم الناس بكذب ادعائهم ودعواهم . وأخيراً نراهم يعلنون الحرب على رسول اللّه ﷺ ؛ لأنه لم يقدم هذه الأمور التعجيزية ، (واللّه لنقاتلنك حتى نهلكك أو تهلكنا) ولم يستجب لهذه المطالب . والدعاة إلى اللّه قد يفاجؤون بمثل هذه المواقف ، ويحرص العدو على أن يحرجهم أمام الناس أنهم متزمتون متعصبون ، يريدون أن يحشروا الإسلام فى كل قضية ، فما علاقة الإسلام بالسياسة ويتهمهم ـ كما نسمع الآن بعض روائح هذا الاتهام ـ بأنهم يعارضون التفاهم الوطنى العام، ويصرون على أن يكونوا وحدهم فى الحكم . وتضعف أحياناً نفوس الدعاة أمام هذا الاتهام ، ويوجد فى صفوفهم من يطالب قيادة الحركة الإسلامية بأن تكون لينة فى مواقفها، وأن تبرز روح التقدم والتساهل مع الخصوم؛ لتثبت للعالم أنها غير متعصبة. إننا فى الحقيقة أمام قضيتين يحرص الاتجاه المعادى للإسلام أن يحصرنا بها :

القضية الأولى : إنه يقبل أشخاصنا دون فكرنا ، يقبلنا شركاء فى الحكم ، وكأن هذا تسامحاً منه وتقديراً وإكراماً لنا .

القضية الثانية : إنه يقبل منا أفكاراً عامة لا تحمل مسحة الإسلام ،ولا تنطلق منه، كالحديث العائم عن الحرية والعدالة، وحقوق الشعب، ونصر الضعفاء ، وتبنى قضايا العمال والفلاحين إلى غير ذلك من الأطر. ولكن مجردة بعيدة عن الإسلام.

إنه يقبلنا بهاتين الصيغتين ، وإلا فنحن متزمتون متعصبون . ويبرر حربه علينا لوجود هذا التعصب فينا ، ونحن بحاجة إلى أن نعى هذه المناورة ونعى أبعادها . إن القضية عندنا هى قضية حكم الإسلام قبل أن تكون قضية حكم المسلمين . نحن لا نريد الحكم لذواتنا وأشخاصنا ، ولا نريد الحكم للجاه والسلطة والنفوذ . إنما نريد الحكم لهذا الدين ؛ لأن يكون الدين كله لله : ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

وهكذا رأينا فشل أضخم مفاوضات وقد حشد لها أضخم الإمكانات فى صف قريش . ورفض رسول الله ﷺ كل الحلول المطروحة لإعادة الائتلاف الوطنى فى مكة ، وإنهاء الخلافات الدينية فيها ، وتوحيد الكلمة ولو تحت قيادة محمد رسول الله ﷺ ، على أن يتخلى عن رسالته وعن دينه .

إن الائتلاف على حساب العقيدة مرفوض ، والاتفاق على حساب الإسلام مرفوض ، ووحدة الصف تحت راية غير الراية الإسلامية مرفوضة كذلك ، ونصبر حتى يحكم الله بيننا وبين عدونا وهو أحكم الحاكمين .

السمة السادسة والعشرون

تحييد بعض الشخصيات والبطون نتيجة المفاوضات

بين يدينا المحادثات الخاصة التى تمت بين عتبة بن ربيعة زعيم بنى أمية وبين رسول الله ﷺ ، والتى قدم فيها نفس العروض السابقة ، ولنستمع إلى رد رسول الله ﷺ عليها : (. . . حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه . قال : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاسمع منى » . قال : أفعل . فقال : « ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، حم . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** ... ﴾ » [فصلت : ١ ـ ٤] . ثم مضى رسول الله فيها يقرأها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله ، لقد جاءكم

أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولاً واللّه ما سمعت بمثله قط ، واللّه ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ،فواللّه ليكون لقوله الذى سمعت نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزّكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك واللّه يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم)[1] .

لا ندرى إن كان هذا الحادث قبل المفاوضات السابقة أو بعدها ولكن الذى يعنينا من الأمر أدب الحوار . وكيف أن رسول اللّه ﷺ جلس يستمع لهذه العروض الهزيلة ـ بله السخيفة ـ من عتبة بن ربيعة ولم يقاطعه فى حديثه ، ولم يشمئز من كلامه بل أكثر من ذلك يفسح له المجال للمتابعة كى يفرغ كل ما فى جعبته ، ثم يسأله : « أو قد فرغت ؟ » ويخاطبه بقوله : « يا أبا الوليد » .

لقد كان رسول اللّه ﷺ يحترم خصمه، ويتكلم معه بأدب بالغ ، وتقدير جم ويكنيه بكنيته . وبذلك يعلمنا أدب الحوار . وأهم نقطة فيه أن يتسع صدرنا لاستماع وجهة نظر الخصم ، مهما كانت وجهة النظر هذه مرفوضة أو مقبولة عندنا ، سامية أو منحطة لأننا بذلك نضمن أن يستمع خصمنا لنا ، ويتسع صدره لوجهة نظرنا ، وما لم نملك هذه الخاصية الهامة ، فلن نربح الحوار مع عدونا .

ثم كانت الخطوة الثانية فى المفاوضات تلاوة صدر سورة « فصّلت » وهى التى تتناول وضع هؤلاء المشركين وموقفهم من الإسلام، ثم تعرض عقيدة الإسلام ـ والتوحيد أهم عنصر من عناصرها ـ ثم الحديث عن قدرة اللّه تعالى الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . حيث انتهى الأمر بعتبة أن ناشد رسول اللّه ﷺ باللّه والرحم أن يكف فكف .

صحيح أن عتبة بن ربيعة لم يسلم لكنه هزم نفسياً أمام نصاعة الدعوة وبلاغة القرآن . ومن أجل هذا جاء يعلن أمام قومه : سمعت قولاً واللّه ما سمعت مثله قط . واللّه ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ولا بالكهانة . هذا ما عبر به عن إعجابه

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١/ ٢٩٤.

وذهوله، ثم الدعوة إلى موقف إيجابى من الدعوة: (أطيعونى واجعلوها بى، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فواللّه ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم، فإن تصبه العرب كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به) إنها دعوة قريش كلها لإيقاف الحرب ضد محمد ﷺ مع المبررات الكاملة لذلك وترفض قريش الموقف وتتهم عتبة بأن محمداً سحره . وأمام هذا العداء المستحكم والموقف العنيف معه ، أعلن موقفه الصريح : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم . وانسحب عتبة بن ربيعة من المعركة ضد محمد ﷺ . وانسحب وراءه أكبر تجمع قبلى بعد بنى مخزوم هو بنو أمية . واستطاع رسول اللّه ﷺ أن يحيد عتبة وبنى أمية ويخفف من تكالب الأعداء على دعوة الإسلام .

إن مهمة القيادة الإسلامية وهى تخوض الحرب ضد أعداء الإسلام أن تخذل عنها الأعداء ما استطاعت، أن تمزق الصف الكافر ، أن تفتت وحدة صف العدو . فتحيد من تستطيع تحييده ، وتضم إلى صفها من تستطيع ضمه ، وأن تثير الشكوك والخلافات بين الكافرين. ولا يعتبر هذا وهناً فى الدين، ولا مهادنة فى دين اللّه ، ولا تساهلاً على حساب العقيدة ، بل هو عمق سياسى ، ونضج دعوى . ما أحرى القواعد أن تفقهه من رسول اللّه ﷺ . وتنضبط بتوجيه القيادة حين تسكت عن عدو أو تضطر أحياناً للثناء على بعضهم ، فهى أدرى بملابسات الحرب السياسية التى تخوضها ، وهى أدرى بطبيعة التعامل مع العدو ، من تهادن ومن تحارب، وهى صاحبة الحق فى هذا الأمر، وعلى القواعد الالتزام بخطها السياسى .

السمة السابعة والعشرون
التجمع القبلى لحماية القيادة
(أبو طالب وبنو هاشم وبنو المطلب)

قال ابن إسحاق : (ثم إن قريشاً تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول اللّه ﷺ الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ،ومنع اللّه رسوله منهم بعمه أبى طالب . وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وبنى عبد المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول اللّه والقيام دونه . فاجتمعوا

إليه وقاموا معه إلا ما كان من أبى لهب عدو الله الملعون) [1] .

(وقال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : إنهم أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية فبلغ ذلك أبا طالب ، فجمع بنى هاشم وبنى عبد المطلب . فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله. فمنهم من فعل ذلك حمية، ومنهم من فعل ذلك إيماناً ويقيناً . . .) [2] .

لم يكن وضع أفراد القبائل واحداً بالنسبة للإسلام ، فالقبائل التى تحمل لواء الحرب للإسلام لم تكن تقبل لأفرادها الانتساب للإسلام ؛ لأن هذا إنقاص لكرامتها كما تتصور . ومن أجل هذا فقد كان أبناؤها يتعرضون لصنوف الأذى والاضطهاد وكانت أحوالهم أشق وأصعب من أحوال أبناء القبائل الضعيفة ، وذلك على غير الصورة لدى بنى هاشم وبنى المطلب الذين كانوا يتبنون حماية رسول الله ﷺ،وبالتالى فالذى يسلم فيها يدخل فى حماية زعمائها تبعاً لأمر رسول الله ؛ ولهذا الموقف كان لابد من القضاء على رسول الله ﷺ لاجتثاث الفتنة من جذورها . وعلى رواية الزهرى أن قريشاً اتخذوا هذا الموقف علانية ، مما جعل أبا طالب يرى أنه عاجز عن حماية محمد ابن أخيه .

لقد أقدم على خطوة حاسمة حيث دعا بنى هاشم وبنى المطلب ليحملوا مسؤولياتهم كاملة فى حماية رسول الله ﷺ . ومن موقع زعامته لبنى هاشم وبنى المطلب استجاب له الجميع لذلك ، فحملوا سلاحهم من منطق العزة القبلية والأنفة العشائرية .

إننا أمام ظاهرة فريدة أن تقوم قيادة مشركة بقواعدها فى حماية قيادة إسلامية وتتحمل مسؤولية هذه الحماية . ولو كانت قد تؤدى إلى فتح معركة وحرب مع الفريق الآخر ، وما يمكن أن تقدم هذه القيادة على هذا الموقف لولا المركز الرفيع الذى يتمتع به رسول الله ﷺ فى قبيلته . ولم يقف أبو طالب عند هذا الحد ، بل طمع أن يضم كل بنى عبد مناف ـ على شركهم ـ إلى حلفه ، واعتبر تخلفهم عن نصرة محمدٍ ﷺ مطعناً كبيراً فى نخوتهم الجاهلية ، إذ يقول :

أرى أخوينا من أبينا وأمنا ... إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمسر

أخص خصوصاً عبد شمس ونوفلاً ... هما نبذانا مثل ما ينبذ الجمر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١/ ٢٦٩ . (٢) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٣١١ .

هما أغمرا للقوم فى أخويهما فقد أصبحا منهم أكفهما صفر[1]

ونلاحظ هنا أن الحركة الإسلامية قد نالت هذه الحماية دون أن تقدم أى تنازل عن عقيدتها ، بل تمت الحماية لمحمد ﷺ وهو يدعو إلى الإسلام ، ويسفه أحلام قريش ، ويحارب عقيدتها ، لقد كانت الحماية لشخصه ولحرية دعوته حتى ولو كانت الدعوة ضد معتقدات حماته . وهذا من غرائب ما روى التاريخ . وقد تتكرر هذه الصورة فى واقعنا المعاصر فى حالتين :

الحالة الأولى : أن تتضارب مصالح الجاهلية ، فلا يرى فريق منها مجالاً لضرب مصلحة الفريق الآخر إلا بحماية الدعاة إلى الله ، وهذا ما نجده أحيانًا حين تلجأ أمريكا على سبيل المثال إلى إعطاء الحرية للدعاة المسلمين كى يقفوا فى وجه النفوذ الشيوعى فى منطقة من المناطق ، وهذه الحالة لا تعنى أن يطمئن المسلمون إلى هذه المواقف ، بل تعنى أن يستفيدوا منها ؛ لأنه ما إن يظهر خطر المد الإسلامى إلا ويتغير الموقف من هذه الدولة أو أزلامها فى السلطة ، ويحس هذا العدو أن الخطر الأكبر هو المد الإسلامى.

الحالة الثانية : أن يسود الفكر الديمقراطى حقيقة فى أمة من الأمم أو شعب من الشعوب ، ويتحرك المسلمون بالدعوة انطلاقا من هذه القوانين و المبادئ ، واستفادة منها فى حرية التبليغ. فتضيق الجاهلية ذرعًا بهذه الدعوة فتحاول خنقها . فلا عجب أن يوجد فريق من هذه الجاهلية يحمى الدعوة الإسلامية ويساندها طالما أنها لا تتجاوز مجال البيان والكلام. وبخاصة إذا كان هذا الفريق يمت بصلة قربى أو مصلحة للمسلمين،وسواء أكانت هذه الحالة أو تلك ، فليس للحركة الإسلامية فى هذا المجال أن تطمئن لهذه الحماية ، بل عليها أن تتحرك فى أطر ثلاثة :

الإطار الأول : أن تستفيد من هذه الحماية أقصى حدود الاستفادة فى التبليغ والبيان.

الإطار الثانى : أن تكون يقظة ، فلا تقدم مقابل هذه الحماية أى تنازل عن عقيدة أو تراجع عن فكرة لمجاراة هؤلاء الذين يقدمون الحماية أو مجاملتهم .

الإطار الثالث : أن تصمت عن النيل منهم وشتمهم بصفتهم كفارًا ، طالما أنهم يناصرون الدعوة ، بل لا غرابة أن تثنى على مواقفهم وتمدح شجاعتهم دون أن يصل الثناء إلى عقيدتهم .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١/ ٢٦٨ .

السمة الثامنة والعشرون

الحصار الاقتصادى والمقاطعة العامة لتحطيم الدعوة وحلفائها

وقال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا على بنى هاشم وبنى المطلب ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوا منهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، ولا يقبلوا منهم صلحًا أبدًا ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل . . . وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة ، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مسلمهم وكافرهم إلى أبى طالب ودخلوا معه شعبه ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا وكان لا يصل إليهم شىء إلا سرًا . . . وقطعت قريش عنهم الأسواق حتى كان يسمع صوت أبنائهم ونسائهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع ، واشتدوا على من أسلم ممن لم يدخل الشعب وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديدًا .

قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب :وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد اغتياله ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، وأمره أن يأتى بعض فرشهم فينام عليه[1] .

لقد أصبح قتل رسول الله ﷺ هدفاً بحد ذاته لدى المشركين . فهل يغامر الحلفاء للنبى ﷺ بتمزيق صف مكة من أجله ؟ وإلى أى مدًى يسيرون فى هذا المضمار ؟ وكان الحصار وكانت المقاطعة محك الاختبار .

لقد كان الأمر قبل المقاطعة أمراً سهلاً وميسوراً، فلا تعدو الحماية حمية وأنفة من هذين البطنين أن تتنازل عن رجل من أبنائها لقبائل أخرى ؛ لكن القطيعة والحصار وجّها ضربة مجهضة لهذين البطنين وعزلاهما عن مكة كلها ، وأنزلت بهم الجوع والعرى ، ورسمت لهم طريق الإبادة .

إننا لا نستغرب هنا أبداً موقف المسلمين وصبرهم ، فمن خلال العقيدة نجد مفهوم الأجر والثواب يوم القيامة ، ونعيم الجنة بعدها كفيلين باستمرار المسلمين على خطهم وثباتهم على محنتهم وابتلائهم . لكن الأمر يختلف تمام الاختلاف

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٣١٢ .

بالنسبة للمشركين ، فلابد أن يتساءلوا فيما بينهم: فيم نلقى هذا العذاب ؟ وفيم نلقى هذه الإهانة ؟ وهذا الجوع والتشرد والخنق ؟ والجواب واضح . فالأمر كله من أجل محمد بن عبد الله ؟ !

لكن التساؤلات الأكثر حرجًا ودقة هى : لم لا يرجع محمد عن دينه طالما أن هذا الدين باطل ؟! أو نبقى نسانده وهو يهاجم معتقداتنا، ويسفه أحلامنا ، ويسب آلهتنا ؟ ! وخطر مثل هذه التساؤلات كبير . وأى تفكير سياسى وميزان مصلحى لا يقر أبدًا إمكانية استمرار هذين البطنين على هذا الموقف ، عندما تنهار مصلحة هذين البطنين، فهل يمكن للقيم الجاهلية أن تثبت أمام ضرب مصالحها بله الإجهاض عليها ؟ !! لقد أصبحت مكة كلها فى خطر مما أدى إلى انقسام مكة إلى معسكرين كبيرين المعسكر الأول يضم المسلمين وبنى هاشم وبنى المطلب مسلمهم ومشركهم، والمعسكر الثانى يضم المشركين من بقية البطون القرشية ، ولا شك أن نظافة الشخصيات الإسلامية، ومركزها المرموق فى قبيلتها هما اللذان دفعا لهذا الموقف، ولو لم يكن رسول الله ﷺ على أعلى مستوى من التقدير والاحترام والتعظيم لما غامر البطنان الكبيران ـ بنو هاشم وبنو المطلب ـ فى خوض حرب من أجله . ولقد مثل هذه الصورة لامية أبى طالب الرائعة التى يقول فيها بعد هذا الحدث :

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وقد حالفوا قومًا علينا أظِنّة ... يعضون غيظًا خلفنا بالأنامل

صبرت لهم نفسى بسمراء سمحة ... وأبيض عقب من تراث المقاول [1]

وأحضرت عند البيت رهطى وإخوتى ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل [2]

ثم يقسم بالأيمان المغلظة بالله والبيت ، والحجر الأسود ، ومقام إبراهيم ، والسعى بين الصفا والمروة وبالشهر الحرام ، وبموقف عرفات. يقسم بهذا كله ويعوذ به أنه لن يتخلى عن محمد بن عبد الله :

كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن إلا أمركم فى بلابل

كذبتم وبيت الله نبزى محمدًا ... ولما نطاعن دونه ونناضل [3]

---

(١) كناية عن السيف .

(٢) المقصود أثواب الكعبة وكانت ثيابا حمرا فيها خطوط .

(٣) نُبزى محمدًا : نُغلبُ عليه .

ونسلمه حتى نصرَّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وينهض قوم فى الحديد إليكم نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل [1]

ويعلل سبب إعلانه هذه الحرب ، ولماذا اتخذ هذا الموقف مع عشيرته قائلا :

وما تَرْكُ قومٍ لا أبا لك سيدًا يحوط الذمار غير ذربٍ مواكل[2]

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

تلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى رحمة وفواضل

ويهاجم بعد هذا بقية بنى عبد مناف، من بنى أمية وبنى نوفل الذين ظاهروا الأعداء عليهم[3] . إنه عندما يستعد فريق من المشركين لخوض معركة مسلحة لحماية فريق من المؤمنين فهذا يعنى أن التقدير والحب لهم يفوق كل وصف ، فمحمد ﷺ عند أبى طالب ورهطه زعيم بنى هاشم ، يفدونه بالمال والروح، بالدم والنساء والأبناء.

والحركة الإسلامية وهى تخوض غمار الجهاد ، وتواجه الجاهلية العاتية ، لا تعدم أن تجد بعض النماذج والتجمعات والقيادات الجاهلية والقبلية مثل بنى هاشم وبنى المطلب، وتنطلق من الأعراف والقوانين الجاهلية لحماية هذه الحركة .

إن معظم القوانين والدساتير الجاهلية تضع فى صلبها حرية الاعتقاد والكلام للمواطنين، والتى تتبنى الديمقراطية مبدأ سياسيا بغض النظر عمن يمارسها فعلا أو اسما . ومن باب تنفيذ فقرات الدستور ، ومن باب حماية القوانين ، ومن باب الأعراف السائدة ، قد تجد الحركة الإسلامية من يساندها ، ويحميها ، ويرد عنها مؤامرات الإبادة .

إن المناخ الديمقراطى هو أنسب الأجواء للحركة الإسلامية ، ومن خلاله قد نجد مثلا نواب المجلس يحولون دون تشريع يبرر حظر الحركة الإسلامية ، بل يقوم هؤلاء النواب بسن قوانين تضمن حمايتهم ، ومثل هذه الظروف تستغلها الحركة الإسلامية ولا تفرط فيها، وتعمل دعوة وجهادًا من خلالها.

لكن يجب ألا يغيب عن بال الحركة الإسلامية أبدًا أن المناخ الديمقراطى حين

---

(١) الإبل التى تحمل الماء والأسقية.

(٢) الذرب المواكل : هو الذى يتكل على غيره.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٩١ ــ ٢٩٥ (متفرقات) .

لا يعدو أحيانا اللفظ والادعاء ، لا يجدى عليها شيئا . بل باسمه يمكن أن تباد ويقضى عليها خاصة فى دولنا التى يطلقون عليها دول العالم الثالث ، فتظهر كل أوراقها اعتمادًا على هذا المناخ ، عليها أن تبقى رصيدًا من أشخاصها وتنظيمها وحركاتها ومراكزها سرا حتى لا يباد لو فكرت الجاهلية بالانقضاض عليها ، وقلب ظهر المجن لها. ومن أجل هذا رأينا أن المركز الاحتياطى فى الحبشة برجالاته ونشاطه بقى على ما هو عليه ، ولم يستدع رسول الله ﷺ أولئك المسلمين إلى مكة ، بعد هذه الحماية ؛ لأنه يعلم أن هذه الحماية مؤقتة ، ويعلم أن الضغوط قد تضطر هذا التجمع للتراجع والخضوع لعنف العدو اللدود .

لقد رأينا كل دعاوى الديمقراطية الكاذبة تنهار أمام الإرهاب الحاكم فى بعض الأقطار واستطاع طاغيتها أن ينتزع من مجلس شعبه كله قرارًا يقضى بإعدام كل من ينتمى إلى الإخوان المسلمين، والذين هربوا فى المرة الأولى عادوا صاغرين فى المرة الثانية وبقوة (الحذاء العسكرى) للتوقيع عليه. ويكاد التاريخ لا يشهد مثيلا لهذا القرار ، أن يُعدم امرؤ على انتمائه الفكرى باسم مجلس يمثل الشعب كله حسب الادعاء.

لكننا هنا أمام صورة مغايرة ، أمام فريق من الجاهلية ، ضحى بمصالحه واستقراره ووجوده من أجل الإسلام ، ولم تكن التضحية يومًا أو يومين ، بل امتدت سنتين وثلاثا . وإنى ليأخذ بى العجب وأنا أتخيل هذه الصورة ؛ صورة ذلك المشرك القابع فى زاوية من زوايا شعب أبى طالب ، ويده على سلاحه ، يكاد يقتله الجوع ، ويفتك بأولاده وزوجه ، والأمل مسدود أمامه بلا رجاء، ويسائل نفسه ؟ لم ينالنى هذا الأذى ؟ ويجيب : من أجل محمد ؛ محمد الذى هاجم معتقداتى وآلهتى ودينى . ويتساءل : كيف أعرض نفسى للموت من أجله؟ ثم يطرد هذا التساؤل ويهرب من هذا الخاطر ، ويقنع نفسه بموقفه. طالما أن أبا طالب دعاه لهذا الموقف فلن يتراجع عنه ولو أدى إلى موته .

نحن إذن أمام جاهلية تؤمن بقيم ثابتة فتضحى بمصالحها واستقرارها ووجودها فى سبيل الإسلام.

فلا يجوز إذن أن يبلغ بنا التشنج حدا نتصور فيه أن الجاهلية دائما تنطلق من مصالحها ولا تؤمن بشىء ، بل قد تصادف الحركة الإسلامية فى مسيرتها بعض هذه النماذج .

ويكفى أن ندلل على ذلك من واقع الحركة الإسلامية اليوم وهى تحمل لواء الجهاد ضد الطغيان ، فالأرض التى تتحرك فيها وتأوى إليها وتنطلق منها هى أرض الدول المجاورة . وبعض هذه الدول تعرضت لضغوط عالمية رهيبة لتطرد قيادات الحركة وقواعدها من أرضها فلم تستجب لذلك ، لقد تعرضت مصالحها للخطر ، وبدأت الدول الكبرى حصارها لها لإجبارها على معاداة الحركة. فلم تفعل ذلك ، مع اختلاف المنطلقات الفكرية بينها وبين الحركة،ولا شك أن الحركة الإسلامية ستحفظ إلى الأبد هذه المواقف الكريمة،وتفرق بين من يساندها فى محنتها ، ويعرض نفسه للخطر من أجلها ـ برغم الخلاف العقائدى معها ـ وبين من يتآمر مع عدوها لإبادتها والإجهاز عليها ، والمعروف لا يضيع أبدًا عند أهل المعروف.

السمة التاسعة والعشرون
التفجرات الجاهلية تحطم الحصار والمقاطعة

(ثم بعد ذلك تألف قوم من قريش على نقض تلك الصحيفة، كان أحسنهم غناء فيها هشام بن عمرو بن الحارث ؛ فإنه لقى زهير بن أمية بن المغيرة فعيره بإسلام أخواله (أى تركهم مقاطعين) وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فأجابه زهير إلى نقض الصحيفة، ثم مشى هشام إلى المطعم بن عدى فذكره أرحام بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف فأجابه إلى ذلك ، ثم مشى إلى أبى البخترى ابن هشام فقال له مثل ما قال للمطعم بن عدى، ثم مشى إلى زمعة بن الأسود فكلمه ، وذكر له قرابتهم وحقهم فقال : وهل معى على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم، (واتعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا وتعاهدوا على القيام فى نقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم ، فلما أصبحوا غدوا على أنديتهم ، وغدا زهير بن أبى أمية عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس فقال :

يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم. والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . فقال أبو جهل ـ وكان فى ناحية المسجد ـ: كذبت والله لا تشق . قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت ، فقال أبو البخترى : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نُقر به . قال المطعم بن عدى : صدقتم وكذب من قال

غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك .

قال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل ، وتشوور فيه بغير هذا المكان ، وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد . فقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم) [1] .

لقد كان للصمود الإسلامى ثم الصمود القبلى أثر على معسكر الجاهلية والشرك يفوق أثر معركة حامية الوطيس يخوضها المسلمون فينتصرون بها على أعدائهم ، وكان هذا الصمود كافيا لتفجير الموقف فى مكة ، فقد حرك هذا الصمود كل مشاعر الخير الكامنة فى صفوف أهلها . لقد تحركت مشاعر القرابة واستنفذت كلها من قبل أصدقاء وأقرباء بنى هاشم وبنى المطلب ، ولم يكتف هؤلاء عند المواقف السلبية ، ولم يكتف هؤلاء عند المشاركة الشعورية بل استعد هؤلاء ليقوموا بتحرك إيجابى يُعرض حياتهم للخطر ، وأن يجابهوا الرأى العام كله بكل ما تحمل هذه المواجهة من مخاطر ومحاذير . واستطاعت هذه العصابة بوحدة كلمتها واستعدادها للفداء أن تغير موقف مكة كلها وتكسر طوق الحصار الاقتصادى وتحطم القيود الاجتماعية ، وتعيد الحقوق المغتصبة إلى أصحابها ، وتلغى الظلم القائم على المسلمين .

والحركة الإسلامية تحتاج فى مسارها الطويل إلى فن التعامل مع الجاهلية ، بحيث تنتزع منها كل من يمكن أن يساندها وتستفيد من كل من يدعمها ويحفظ لها حريتها ، وتستغل كل عناصر الخلاف فى صفوف هذه الجاهلية ، ولا يتعارض هذا أبداً مع تميزها ومع المفاصلة بينها وبين الحكم الكافر ، بل نجد هنا أن المصلحة للحركة الإسلامية هو تحطيم هذه المفاصلة ، فليس التفاصل إذن دائما لمصلحة الدعوة والحركة ، بل وجدنا الحالة فى هذه المرحلة هى القضاء على المفاصلة الاجتماعية . وما فرح المسلمون شيئا فرحهم بالقضاء على هذا الحلف الباغى الظالم ، فلقد كان رئيس بنى هاشم فى مكة يناقشهم فى الصحيفة مما يدل على وعيهم لتطورات الموقف .

ونرى يقظة هذا المعسكر فى الرواية التى روتها السيرة عن الزهرى ـ رحمه الله ـ لدى موسى بن عقبة : (إن الله أطلع رسوله على الذى صنع بصحيفتهم فذكر ذلك لعمه فقال: لا والثواقب ما كذبتنى فانطلق يمشى بعصابة من بنى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

عبد المطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش ، فلما رأوهم رأوا أنهم قد خرجوا من شدة الجوع وأتوا ليعطوهم رسول الله ﷺ . فتكلم أبو طالب فقال : إنه حدث أمر لعله أن يكون بيننا وبينكم صلحًا ، فأتوا صحيفتكم ، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها، فأتوا معجبين لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم ، قالوا : قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد قد جعلتموه خطرًا لهلكة قومهم . فقال أبو طالب : لأعطينكم أمرًا لكم فيه نصف ، إن ابن أخى أخبرنى ولم يكذبنى أن الله برىء من هذه الصحيفة التى فى أيديكم ومحا كل اسم له فيها ، وترك فيها غدركم وقطيعتكم . فإن كان ما قال حقا فوالله لا نسلمه لكم حتى نموت عن آخرنا ، وإن كان الذى يقول باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه. قالوا : قد رضينا ، ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر . فقالوا : هذا سحر من صاحبكم ، فارتكسوا وعادوا لشر مما كانوا عليه .فتلكم عند ذلك النفر الذين تعاقدوا ومزقت الصحيفة) (١) .

فمع أن أبا طالب غير مسلم، لكن ثقته بصدق ابن أخيه لا حد لها، بل استعد لتسليم محمد ليقتل إن لم يصدقه . ومضى يراهن قريشا على ذلك ، فهو يبحث عن أية وسيلة لفك هذا الحصار، ومع ذلك أصرت قريش على موقفها واعتبرت الأمر من سحر محمد عليه الصلاة والسلام . ولا شك أن هذا الأمر الذى فضح قريشا ببغيها وظلمها ، جعل لدى هؤلاء النفر أرضية مناسبة للتحرك ضد الصحيفة ، فقدرة الدعاة إلى الله على إيضاح الظلم الواقع عليهم له أثر كبير فى كسب قلوب بعض الأعداء وانتصارهم لهم.

فإذا أردنا للحركة الإسلامية أن تخترق مصاعب المحنة،فلابد لها من إعلام مناسب ينفذ إلى قلوب أعدائها،ليضطرهم إلى الموقف المناسب،ولابد لها من اليقظة الدائمة لتصل إلى الثغرة الضعيفة فى صف خصومها فتنفذ منها ، ولقد مثل أبو طالب صورة الحليف الشريف الذى ربط حياته وحياة قبيلته وحياة بنى المطلب بحياة رسول الله ﷺ، فليبق هذا الدرس للحركة الإسلامية رصيدًا حيا تفقه فيه كيف تنفذ إلى قلب حلفائها فتدفعهم إلى التضحية من أجل الذود عنها ،وتنفذ فى صفوف الخصوم فتنتزع منهم كل أثر خير وقلب ينبض برفض الظلم.

وخاض أبو طالب معركته الإعلامية فأرسل داليته المشهورة إلى مهاجرى

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٣١٢ ، ٣١٣ .

الحبشة من المسلمين يزف لهم بشرى النصر :

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا على نأيهم والله بالناس أرود[1]

فيخبرهم أن الصحيفة مزقت وأن كل ما لم يرضه الله يفسد

وشرح لهم حتى الذين ساهموا فى نقض الصحيفة أسماء ومواقف وأنسابا :

جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا على ملأ يهدى لحزم ويرشد [2]

قضوا أمرهم فى ليلهم ثم أصبحوا على مهل وسائر الناس رقدُ

هموا رجَّعوا سهل ابن بيضاء راضيا وسر أبو بكر بها ومحمد [3]

السمة الثلاثون
دور المرأة فى هذه المرحلة
(جهادًا ودعوة وسرية)

لابد أن تأخذ المرأة المسلمة دورها فى المعركة إلى جانب الرجل ، فمعظم الذين هاجروا إلى الحبشة هاجروا مع أزواجهم ، ومعظم الذين أسلموا أسلموا مع أزواجهم ، ويكفى أن يذكر تاريخ الإسلام باعتزاز أن أول خلق الله إسلامًا امرأة ، وأول شهيد فى الإسلام امرأة، فلم تكن المرأة المسلمة إذن بعيدة عن الساحة،بل تلقت بصبر وبطولة آلام العذاب فى سبيل الله حتى الجوارى والإماء، فالنهدية تلقت العذاب حتى عميت،وسمية تلقت العذاب حتى استشهدت، وفاطمة بنت الخطاب قامت تدفع عن زوجها فلطمت حتى نفر الدم من وجهها هذا جانب.

والجانب الثانى: قدرة الوعى والمحافظة على السرية عندها، فعندما أصيب أبو بكر رضي الله عنه وصحا بعد غيبوبة طويلة ، دفع أمه إلى أم جميل بنت الخطاب تسألها عن رسول الله فأنكرت أنها تعرفه أو تعرف أبا بكر ، لكنها تصرفت بلباقة من جانب آخر . فهى تريد أن تنقذ الموقف دون أن تفشى سرا . فعرضت على أم أبى بكر أن تمضى معها إلى ابنها فوافقت ، وهناك استأذنت أبا بكر رضي الله عنه فى الأمر فأذن لها فى الجواب ، وأشارت إلى أمه الكافرة فأذن لها فى الجواب فأجابت ،

(١) بحرينا : يعنى الذين بالحبشة من المسلمين ، وأرود : أرفق .

(٢) الرهط: هم الذين نقضوا الصحيفة . (٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٩٧ (متفرقات).

ولا ننسى أنها بقيت محافظة على سرية إسلامها حتى اضطرت لإعلانه يوم صفعها أخوها على إسلامها ، واستطاعت بهذا الموقف الشجاع أن تدفع بأخيها إلى الندم ثم إلى الإسلام .

ولئن ذكرنا كل نسوة الأرض ، فلابد أن تكون خديجة رضي الله عنها فى القمة ، فهى التى احتضنت الدعوة والداعية منذ اللحظات الأولى، ووضعت كل ثروتها ومالها تحت تصرف زوجها رسول الله ﷺ ، وصبرت على المقاطعة والفقر وهى سليلة الغنى والثراء، وكان لها فوق هذه الأدوار جميعا موقف المواسى لرسول الله ﷺ وموقف المشجع والمثبت ، وبقيت ذكراها ماثلة فى ذهن رسول الله ﷺ حتى ليقفز فرحا حين يسمع صوت أختها هالة ، أو صوت صديقات كن يزرنها فى حياتها . وحق لرسول الله عليه الصلاة والسلام وللمسلمين أن يطلقوا على العام الذى توفيت فيه خديجة ـ رضوان الله عليها ـ وتوفى فيه أبو طالب عام الحزن .

ما أحوجنا إلى هذه النماذج ، وإلى تربية أمثالها فى صفوفنا ،وإلى دعوة المرأة المسلمة أن تأخذ مكانها الصحيح ، وموقعها المناسب من المعركة . وإن الحركة الإسلامية اليوم لتفخر بالنماذج من الشهيدات اللاتى جاهدن بالسلاح والمال ضد أعداء الله ، وقتلن الأفراد والعشرات وهن فى قواعدهن ، وسقطن مع أبنائهن وأزواجهن فى سبيل الله . والحركة الإسلامية لتفخر بالنساء اللاتى كن يتزوجن من المجاهدين ليشاركن فى شرف الجهاد فى سبيل الله أو نقل الأخبار والمعلومات بين المجاهدين ، أو كشف أوكار السلطة الباغية ، كما وتفخر الحركة الإسلامية بالمهاجرات فى سبيل الله ، اللاتى طوردن ولوحقن ، وحرصت السلطة الباغية على الفتك بهن ففررن بدينهن فى سبيل الله دون أن تلين قناتهن ، أو يضعفن عند التهديد أو الإغراء. كما تفخر الحركة الإسلامية بالمعتقلات فى سجون البغاة اللاتى صبرن على أشد أنواع الأذى والبلاء، دون أن تلين لهن قناة ، أو يَهِنْ لهن عزم .

وإنا لندعو أخواتنا المؤمنات أن يشاركن فى هذا الجهاد وينضوين تحت لواء الحركة الإسلامية ليؤدين الدور الأساسى الذى لا يقدر عليه إلا النساء .

السمة الحادية والثلاثون
المقاومة السلمية

لقد كانت قريش تسعى جاهدة لحرب الإسلام ومنع وصوله إلى الناس ، بل تشوه سمعة رسول الله ﷺ لدى الوافدين إلى مكة للحج أو التجارة . ولم يكن المسلمون ليقفوا مكتوفى الأيدى أمام ذلك ، بل كانوا يمضون إلى هذه المحافل العامة ، أو يجلسون فى الكعبة ويتصلون بأولئك الوافدين يدعونهم إلى الإسلام، ويوضحون معالمه . ولكن ضمن خطة محددة تقضى بعدم الاصطدام المباشر مع العدو ، وعدم الوصول إلى معركة عنيفة تقود إلى استعمال السلاح ، وخف تعرض المسلمين لآلهة قريش ، انطلاقا من الأدب القرآنى : ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

إنما تنصب الدعوة مع هذه الوفود على ذكر محاسن الإسلام ، وعلى التركيز على لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . وكانت الحركة الإسلامية تعيش فى ظل الجاهلية ، فى ظل المجتمع الذى تترع فيه الخمور، وتُنصبُ فيه الرايات الحمر للزانيات، وفى ظل الأصنام التى بلغت ثلاثمائة ، ومع ذلك لم يتعرض المسلمون لهذه المفاسد أو يقاوموها، أو يوجهوا جهدهم للنيل منها أو تحطيمها ، لقد كانوا بعيدين عن هذا كله ، واتجه همهم إلى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والحركة الإسلامية فى مثل هذه المرحلة تتخذ هذا الموقف، فتبتعد عن المواجهة ومواطن الإثارة، وتكف أيديها عن القتال من خلال أوامر القيادة.

لم يكن صحابة رسول الله ﷺ و ﷺ جبناء ولا أذلاء، بل كانوا يعانون من الضبط والالتزام بعدم القتال مالا يعلمه إلا الله ،و كانوا يعانون من الضغط على أعصابهم والكبت على نفوسهم ما يكون القتال معه أهون بألف مرة عليهم ،ومع ذلك لم نسمع عن مخالفة واحدة واندفاع مفاجئ واحد . فى الوقت الذى نرى فيه فى أيامنا من يضع النصوص فى غير محلها من الشباب المتحمس ، فيود أن يخوض معركة من أجل كلمة ، ويواجه الطغيان المنكر القائم ويتهم الناس فى دينهم وعقيدتهم إذا لم يقاتلوا معه .

ونحن ندعو هؤلاء الناس إلى التبصر والتثبت ، ومراعاة طبيعة المرحلة التى

تقدرها قيادة الحركة ، ويتعلمون من رسول الله وصحابته الصبر على البلاء، والحياة مع الفكرة من دون أن يكون الثأر للنفس، والغضب للذات، أو حتى لمحارم الله أن تنتهك ـ قبل الأوامر الصادرة ـ هو المحرك لتصرفاتهم . إن الحركة الإسلامية المنظمة المنضبطة ، هى التى قبلت فى مرحلة من المراحل أن توضع سلى البعير وأمعاؤه على عنق رسول الله ﷺ دون أن يقتل الفاعل، وقبلت أن يبصق فى وجه رسول الله ﷺ دون أن يؤدب السفيه، وقبلت محاولات خنق رسول الله ﷺ دون أن يقضى على المجرم، لا عن خوف أو جبن فى نفوس الأصحاب الذين يفدون رسولهم بكل وجودهم ، إنما قبلت ذلك لأن الأوامر الصادرة لا تسمح بالثأر ولا تسمح برد الفعل ، ولا تسمح بالغضب التلقائى .

إننا لنعلم أن المسلمين خاضوا حرباً من أجل امرأة راودها يهودى على كشف وجهها عندما كانت المرحلة تقتضى ذلك. بينما لم يخوضوا تلك الحرب وأبو جهل يطعن سمية فيقتلها . فالأمر فى كلا الحالتين منطلق من توجيهات القيادة المسلمة التى تعرف طبيعة المرحلة وتخطط لها، وعلى الجنود الالتزام بها. أما العواطف الثائرة التى لا تعرف الانضباط والتى لا تستجيب للالتزام فلتبحث لها عن مكان خارج الحركة الإسلامية .

السمة الثانية والثلاثون

الاستفادة من العناصر المشتركة بين الإسلام والعقائد الأخرى

لقد كان هناك هدنة ـ إذا صح التعبير ـ بين الإسلام وبين النصرانية واليهودية فى هذه المرحلة، وعقائد اليهود لم تتغير، وعقائد النصارى لم تتغير ، ولكن المعركة فى هذه المرحلة مفتوحة مع الوثنية. ونلحظ هذا الموقف فى جانبين :

الجانب الأول : مع الوفد القادم من المدينة، من مشركى مكة الذين مضوا إلى اليهود فى يثرب يسألونهم عن دين محمد ﷺ. فقالوا لهم: سلاه عن ثلاث ، فإن أجابكم عنها فهو نبى مرسل وإلا فهو متقوّل كذاب. سلاه عن رجل طواف فى الآفاق ماذا كان خبره، وسلاه عن فتية فى الدهر الأول ماذا كان خبرهم ، وسلاه عن الروح . وقد أجاب رسول الله ﷺ على هذه الثلاث .

وبذلك شعر المشركون على الأقل أن اليهود ومحمداً ﷺ فى معسكر واحد .

وكان هذا واضحاً لديهم ؛ لأنهم عندما انتصر الفرس على الروم فرحوا بذلك بينما حزن المسلمون حتى ليتراهن أبو بكر رضي الله عنه وأحد المشركين على نصر الروم على الفرس خلال بضع سنين: ﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم : ١ ـ ٥] .

والجانب الثانى : كان من الناحية العملية مع وفد النصارى الذى حضر إلى مكة كما ذكر خبره ابن إسحاق : (ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه فكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة،فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوا وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ، فلما قاموا اعترضهم أبو جهل فى نفرٍ من قريش فقالوا لهم :

خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم وتأتونهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال . ما نعلم ركباً أحمق منكم ! أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيراً) (١) .

والرواية تؤكد إسلام هذا الوفد ، غير أن هذا لا ينفى هذ التقارب بين الإسلام والنصرانية واليهودية فى ذلك الوقت ، خاصة وأن بقايا النصارى الموجودين فى مكة قد شهدوا لمحمد ﷺ بالرسالة ، والحركة الإسلامية من حقها أن تهادن من ترى مهادنته دون أن تقر لمبطل بباطل أو تعلن موافقة على عقيدة كافرة .

أما نقطة اللقاء بين هذه العقائد فهى كونها من عند الله ـ بغض النظر عن الخلاف فى جزئياتها ـ وعن التحريف الذى أصابها ـ ماعدا الإسلام الذى تكفل الله تعالى بحفظه .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٩١ ، ٣٩٢ .

السمة الثالثة والثلاثون

عدم التنازل عن أساسيات العقيدة لإرضاء العدو

روى مسلم والبيهقى عن أبى هريرة (أن أبا طالب لما اشتكى وبلغ قريش ثقله . . . مشوا إلى أبى طالب فكلموه فقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه فخذ له منا وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه .

فبعث إليه أبو طالب . فجاء النبى ﷺ فدخل البيت . فقال (أبو طالب) : يا بن أخى، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك. فقال رسول اللّه ﷺ: « كلمة واحدة يعطونيها يملكون به العرب ، وتدين لهم بها العجم ». فقال القوم: كلمة واحدة ! قال : « نعم ». فقال أبو جهل: نعم وأبيك عشر كلمات. قال: « تقولون: لا إله إلا اللّه وتخلعون ما تعبدون من دونه » . فصفقوا بأيديهم ثم قالوا : يا محمد ، تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لعجب. ثم قال بعضهم لبعض: ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دينكم حتى يحكم اللّه بينكم وبينه . ثم تفرقوا) (١) .

وها نحن نرى أن محاولات قريش اللقاء مع محمد ﷺ أخذاً وعطاءً ولقاءً فى منتصف الطريق قد رفضت كلها ، ولا يمكن التنازل عن كلمة التوحيد التى هى مفرق الطريق بين المسلمين والكافرين .

وعلى ضوء هذا الهدى تسير الحركة الإسلامية مع أعدائها .

إنها أولاً:تفرق بين العدو الذى يود استئصالها،والعدو الذى يحاول حمايتها.

وهى ثانياً : تتقبل كل هدنة أو حماية مع خصم يوقف حربه عليها ، ويهيئ سبل الدعوة لها .

وهى ثالثاً : عندما تقبل هذا الأمر ، لا تقبله على حساب عقيدتها ، أو على حساب مبادئها، بل تتقبله انطلاقاً من مفاهيم وأعراف معينة تسمح هذه الأعراف بحرية العقيدة ، أو حرية العقيدة والدعوة .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٣٤٥ .

وهى رابعاً : إذا قبلت هذه الحماية ، أو الإجارة ، أو الحلف ، لا يضيرها أن تسكت عن مهاجمة أشخاص حلفائها ، أو النيل منهم ، ولكن لا تثنى على عقائدهم ، أو تؤيد باطلهم ، أو تقر انحرافاتهم .

وهى خامساً : تسعى لأن لا تنشغل فى المعارك الجانبية أو تستجر لها ، بل تقف الموقف الثابت الذى ينصب حول تصحيح العقيدة ، أو إيضاح المبدأ ، منطلقها فى ذلك كله قول اللّه عز وجل : ﴿ **وإن كادُوا ليفْتنُونك عَن الَّذي أوْحينا إليْكَ لتفْتَري عَلَيْنا غيْرهُ وإذاً لاَّتَّخذُوك خَليلاً . ولوْلا أن ثبَّتْناكَ لقَدْ كدتَ تركْنُ إليْهم شيْئاً قَليلاً . إذاً لأذقْناكَ ضعْفَ الْحَياة وَضعْفَ الْممَات ثُمَّ لا تَجدُ لَكَ علَيْنا نَصيراً** ﴾

[الإسراء : ٧٣ ـ ٧٥]

ونستطيع أن نجمع مواصفات هذه المرحلة كاملة ملخصة على الشكل التالى والتى أطلقنا عليها اسم : جهرية الدعوة وسرية التنظيم :

١ ـ دعوة الأقربين .

٢ ـ الإعراض عن المشركين .

٣ ـ معالم الدعوة الجديدة : الإيمان باللّه ، واليوم الآخر ، والرسالة .

٤ ـ الدعوة عامة .

٥ ـ سرية التنظيم .

٦ ـ القرآن مصدر التلقى .

٧ ـ اللقاء المنظم المستمر .

٨ ـ الصلاة خفية فى الشعاب .

٩ ـ التركيز على الجانب الروحى .

١٠ ـ الدفاع عن النفس عند الضرورة .

١١ ـ تحمل الأذى والاضطهاد فى سبيل اللّه .

١٢ ـ السماح للضعفاء فى إظهار تغيير دينهم .

١٣ ـ محاولة إنقاذ المستضعفين بكل الوسائل الممكنة .

١٤ ـ حماية الدعوة عن طريق الهجرة .

١٥ ـ البحث عن مكان آمن للدعوة ، وقاعدة جديدة للانطلاق .

١٦ ـ الاستفادة من قوانين المجتمع المشرك : الحماية والجوار .

١٧ ـ المحاولات السلبية من العدو فى المواجهة .

١٨ ـ المحاولات الإيجابية فى الحرب : عمليات الاغتيال والقتل للقيادة .

١٩ ـ جهرية المسلمين وإعلان التحدى للمجتمع الجاهلى .

٢٠ ـ دور الشخصيات القيادية فى إعلان التحدى .

٢١ ـ ملاحقة العدو لتجمعات المسلمين ، وإحباط المسلمين لهذه الملاحقة .

٢٢ ـ عبقرية الوفد الإسلامى فى حوار الملوك .

٢٣ ـ لا مساومة على العقيدة .

٢٤ ـ إثارة الحرب فى صف حلفاء المسلمين ، وفشل هذه المكيدة بالحزم والسرية .

٢٥ ـ المفاوضات المباشرة ، وطرح الحلول السلمية .

٢٦ ـ تحييد بعض الشخصيات نتيجة المفاوضات .

٢٧ ـ التجمع القبلى لحماية القيادة .

٢٨ ـ الحصار الاقتصادى ، والمقاطعة العامة لتحطيم الدعوة ، وحلفائها .

٢٩ ـ التفجرات الجاهلية تحطم الحصار والمقاطعة .

٣٠ ـ دور المرأة فى هذه المرحلة جهاداً ودعوة وسرية .

٣١ ـ المقاومة السلمية .

٣٢ ـ الاستفادة من العناصر المشتركة بين الإسلام ، والعقائد الأخرى .

٣٣ ـ عدم التنازل عن أساسيات العقيدة لإرضاء العدو .